رحلات ابن عطوطة

محمود السعدني



الأهرام
مركز الأهرام للترجمة والنشر

المحتويات

وعلى كل لون

رحمة الله وبركاته على عمنا القديم ابن بطوطة ، كان هو الآخر صحفيا ، وإن كان ليس عضوا بنقابة الصحفيين فلم يكن فى زمانه صحافة ولا يحزنون ، كان الشاعر هو الصحفى ، وكانت غاية الشعر هى مدح الملوك والخلفاء والولاة وعساكر المرور ! .

وكان الشاعر الذى يرفع قصيدة جيدة من نوع (وسمعا بالعشارى اذا ذهبنا ، بأرض الله فى كل زمان) يحصل على مكافأة تساوى الهبرة التى هبرها توفيق عبد الحى من بيع اللحوم الفاسدة والكتاكيت الميتة ..

ولكن عمنا ابن بطوطة لسوء حظه لم يكن شاعرا ، كان شديد الملاحظة ، عظيم الصياغة ، شديد الاهتمام بالناس وبالحياة ، شديد الشوق للبلاد والعباد ، وكان متوقد الذكاء وصاحب مفهومية يفهم الأشياء وهى طايرة وأحيانا قبل أن تطير ! .

ولكن اسم ابن بطوطة كان عيبه ، فبطوطة من البط ، والبط طائر لايطير ، شديد الكسل ، شديد الوخم ، غاية رحلته لفة ، فى بحيرة ، أو نزهة فى بركة أو بلبطة فى ترعة ـ حسب الأحوال والتساهيل ..

والست والدتنا ـ الله يرحمها ـ كانت تصرخ دائما فى وجهى : « والنبى تقعد كده وتنبط » .

ورواد قهوة المعلم حسن عوف فى الجيزة يقولون من باب الحكمة : « مش فلان اتبطط » ، يعنى انكسر ، يعنى ضاع فى الكازوزة .. يعنى اتخرب بيته ياولداه !! .

المهم أن ابن بطوطة لم يكن اسما على مسمى ؛ ولذلك أنا رأيت بعد كل هذا العمر الطويل أن أصحح هذا الخطأ الرهيب ، وأطلقت على نفسى لقب **ابن عطوطة** على وزن ابن بطوطة باعتبار أن كلا منا له رحلات وجولات وسفريات على اختلاف المكان والزمان ..

أنا إذن ابن عطوطة ، وهو من **العط** . والانسان يعط حتى يزهق ، وأحيانا يعط حتى يغمى عليه ، وبعض الناس تعط وتعط حتى تضيع ..

وزعيم العطاطين فى العالم العربى كان عمنا **زكريا الحجاوى** ، وكان يعط من شارع إلى شارع ومن قهوة بلدى إلى قهوة أفرنجى ، ومن قهوة بهوات إلى قهوة مجاذيب ، ومن كفر إلى نجع ، إلى ضيعة ، إلى بلد ، إلى شاطىء ، إلى رصيف ، ثم انتهى به المطاف إلى أن ذهب وعط فى الدوحة وداح هناك السبع دوحات .. ومات غريبا .. ياكبدى !! .

وتولى إمارة العط من بعده عمنا **عبد الرحمن الخميسى** وهو رجل عطاط من قبائل عطيط ، وهى قبائل احترفت العط فى أرجاء الامبراطورية أيام مجد العرب والعروبة والسحابة التى كانت تمطر فى كل مكان فيعوط خراجها إلى خزائن الخليفة . وفى النهاية استقر عمنا عبد الرحمن الخميسى فى موسكو .. ومات غريبا هو الآخر .. وامصيبتناه !! .

وهناك سبب آخر جعلنى أطلق على نفسى لقب ابن عطوطة وهو أن الست والدتنا ـ الله يرحمها ـ كانت تقول : « ماتهمد بقى يابنى وكفاية عط » . كما أن صديقى **فتحى بحيرى** كان يزفر زفرات ساخنة ويقول : « لو ربنا يتوب علينا بقى من العط » . وكان فتحى ضجرا من كثرة الانتقال من مهنة إلى مهنة ومن **سبوبة** إلى سبوبة ، ومن شغلانة إلى أخرى ، وكان يرجو لو يستقر مرة واحدة فى حياته ويستريح ، وقد استخدم كلمة العط هنا فى معنى الدوخة التى .. (إلهى مايحكم بها على عدو أو حبيب) ! .

هذه إذن هى المصادر التاريخية لكلمة العط ولكنها كلها مصادر غير رسمية ، وإن كان بعضها مدونا فى كتب **سيد أبو دراع** (وهو فنان شعبى غير محمد أبو دراع) ، وكانت له أغنية مشهورة منذ نصف قرن من الزمان :

ياللى انكتب عليك العط
اصبر دا الرب مش ناسى

أما المصادر الرسمية لكلمة العط ، فقد أحجمت عن الخوض فيها خوفا من وجع الدماغ ، ولكنى توكلت على الله وفتحت قاموس **ابن مهروش الزلبانى** (وهو عالم حجة فى اللغة والنحو) ، ويقول ابن مهروش فى باب عط : « العط من العطوط ، وتجمع عطاطيط ، ويقال عط فلان أى ترنح وكاد يميل ، ويقال شجرة عطاطة أى رقيقة الأغصان هشة الأوراق تئن تحت نسمات الريح وتميل » .

يقول الشاعر الجاهلى :

عططت لما ابتلانى الدهر من نكد
ورحت أمشى على درب من الهرد

أى أنه من شدة الهم والغم كان يمشى فيميل ، كأنه يسير فى شارع من شوارع

الجيزة التى امتلأت بالمطبات والحفر بالرغم من تصريح المحافظ بأن كل شوارع الجيزة كالشعر الحرير على العينين **يهفهف** ويرجع يطير ! .

وفى لسان العرب لعمنا ابن منظور : « **العط هو** غابوق البن من الخمر ، وسمى **عط** لأن من شربه مال وترنح » .

ويقول الشاعر الجاهلى **حمزة الجيزاوى** :

عططنا فدخنا فاسقنى من عطك المدهون

وهو بيت من قصيدة يعتبرها البعض من المعلقات لأنها وجدت معلقة على شباك مديرية الأمن بمحافظة الشرقية . وقيل إنه كتبها بعد علقة محترمة أكلها الشاعر حمزة الجيزاوى بعد قضية سرقة بالإكراه ارتكبها الشاعر واستخدم فيها مطواة قرن غزال .

ولكن الدكتور لويس عوض أكد عندما سألته أن كلمة **عط** أصلها لاتينى وهى فى الأصل **ألط** : ALT وحرّفها العامة إلى **علط** ، ثم أصبحت **عط** بمرور الزمان . وهى أيضا وردت فى أغلب الأعمال الأدبية العظيمة على مر التاريخ (هذا كلام الدكتور) ، فالعراف الأعمى **ترسيس** وقف يصرخ بالصوت الحيانى أمام الملك الجبار ويقول : لقد حفيت قدماى من كثرة الألط ، أى من كثرة العط ، أى من كثرة المشى ، إذ لم يكن هناك أتوبيسات فى ذلك الزمان ! .

والعبقرى شكسبير أبرز الكلمة فى عبقرية متناهية فى شخصية مسرحية شهيرة هى شخصية **عطيل** . واذا نظرنا إلى الكلمة ـ هكذا يقول الدكتور ـ اكتشفنا أنها تتكون من مقطعين : **عط** و **يل** ، ولكن شكسبير كان يقصد بها عط فقط وأضاف اليها بقية الكلمة هربا من المحاكم ، فقد كانت أسرة عط لا تزال تعيش فى قرية جاكسا من أعمال مدينة طنجة على شاطىء المضيق ! .

ويقول الناقد الانجليزى الشهير **هابين كوربض** (والكلام للدكتور لويس) : إن شكسبير أراد أن يفسر الشخصية ويحللها ، **فعطيل** رجل عطاط مغربى

كذاب يفتح الكتاب ، عط من بلاده إلى بلاد الأغراب وذهب فى العط إلى بعيد فأحب **ديدمونة** وعط أكثر فذهب إلى قبرص وعط أكثر وأكثر فقتل ديدمونة ، بوشاية من **ياجو** الشيطان . إن نهايته المأساوية كانت نتيجة لعطه الذى ليس له غاية .

وهناك أيضا ـ الكلام للدكتور أيضا ـ الراهب **عطا الله** الذى راح يضرب فى الأرض بلاغاية صارخا فى الناس : استعدوا ليوم القيامة . وساح فى الأرض عشرين عاما بدأها من فلورنسا إلى أنفلونزا ، إلى كلومانزا ، حتى استقر به الأمر أخيرا فى بنى مزة ، وهو الاسم اللاتينى لما يعرف الآن ببنى مزار . وأثناء عطه فى أنحاء الصعيد الجوانى دخلت فى قدمه شوكة فتقرحت قدمه وتقيحت ، ومات ميتة الأبطال ! وسمى عطا الله لأنه كان يعط فى الأرض باسم الله .

ولكن المجمع اللغوى المصرى لا يوافق على رأى الدكتور لويس عوض

ويقول فى نشرته السنوية : إن كلمة عط كلمة عربية استخدمتها قبيلة فزارة أيام الجاهلية وجاءت على لسان شيخها « نحن قوم اذا عططنا لا نميل » ، أى أنهم شديدو البأس ، أقوياء الشكيمة ومهما بلغ العط فأنهم لا يتعبون . وعن **حجاج ابن مزجج** عن **زوابة بن مشلح** عن **أشجع بن وهدان المخزومى** أن شيخ قبيلة فزارة قال : خرجنا فى ليلة قمرية إلى وادى العقيق ، فمر بنا **عرجون بن مستلف الزمان** وكان معه غلام يقال له أعلط ، فدعوناهما للنزول فأقبل الغلام وابطأ عرجون بن مستلف الزمان ، فقلنا للغلام : ويحك ما يحبس مولاك ؟ قال : كان عند صاحبه فى مكان يقال له الخنفار ، فأكل القسب (التمر اليابس) والجلجلان (نبات مالح) ويبدو أن سيدى أكل كثيرا فأصابه **العط** . فسألناه : وما هو العط ؟ (وكان الغلام يتكلم بلغة أهل حمير) فقال : العط يقع للانسان عندما ينهد منه الحيل وتتشخشخ منه الركبتان ، فيقال على الرجل الذى ألم به هذا العارض رجل **عط** ، فاذا أمعن المرض فيه واستفحل قيل رجل **معطوط** ، ويقال للرجل **العطاط** اذا كان ثقيلا يخافه الناس وينفرون من لقائه ، ورجل **عطعاط** للكريم السخى ..

قال الأمهر بن مشهور فى مدح حاتم الطائى :

وعطعاط بأعلى حديدة إذا نصبت لم تضرب الحد بالنصب

طعمنا على سغب فيدعى بالقرى لعطعاط أدام الطعم من سغب !

هذه إذن هى مصادر العط ، عرضناها عليكم كما عرفناها ، وحرصنا على أن نذكر كل المصادر ، شعبية ورسمية وأكاديمية وكلاسيكية ، وعلى كل لون ، ونستطيع الآن أن نبدأ رحلتنا ، رحلة العط التى ابتلانا بها الله وأخذت من جلودنا راقات ، ومن أعمارنا سنوات وسنوات ، ولكن قبل أن نبدأ رحلتنا هناك ملاحظة لابد من إثباتها هنا ، حتى لا يظلمنا قارىء أو يفترى علينا ناقد . فالفرق بين رحلة ابن بطوطة ، ورحلة العبد لله ، هو الفرق فى الزمان وفى المكان أيضا .

عندما بدأ عمنا ابن بطوطة رحلته الميمونة على صهوة بغل ، كان الوطن العربى يسترخى فى هدوء ، الحدود سداح مداح والبساط أحمدى ، والمزاج رايق والرءوس مرفوعة والأعلام أيضا ، والظهور مشرعة والسيوف أيضا . وكان أمير المؤمنين يعطس فى القاهرة فيقول له من فى الدار البيضاء يرحمكم الله . وكان العربى يسافر فى أرجاء الامبراطورية بلاد الله لخلق الله ، فلا حدود ولا جوازات ولا جمارك بالمصرى أو كمارك بالعراقى ، أو مكوس كما يسميها البعض فى بلاد بنى عدنان . وكان السفر فى بلاد العرب على أيام عمنا ابن بطوطة أعزب ليس له جواز . ولم تكن هناك تأشيرة خروج، ولا تأشيرة دخول، ولا إذن عمل . وكان الدينار العربى يساوى عشرة دولارات هندى ، باعتبار أن الهنود الحمر كانوا هم أصحاب الدولار فى ذلك الزمان ! كان هذا هو حال العرب فى زمن عمنا ابن بطوطة ..

أما الآن فى زمن العبد لله .. فلا حول ولا قوة إلا بالله . الجمارك فى كل مكان من بلاد العرب لاتنقض إلا على العربى ، ولا تفتش إلا من يبدو من

سحنته أنه من نسل قحطان ! وصاحب الشرطة فى بلاد العرب الجديدة لا يقتفى إلا أثر العرب الأغراب ، ولن تجد فى سجون العرب أحدا من صنف الألمان أو الطليان ، فما بالك بصنف الانجليز أو الأمريكان ؟ .

ستجد مصريا مسجونا فى سجن العراق ، وعراقيا مسجونا فى سجن سوريا ، وسوريا مسجونا فى سجن الخليج ، ومغربيا مسجونا فى سجن ليبيا ، وليبيا مسجونا فى سجن تونس ، وفلسطينيا مسجونا فى كل السجون ! .

واذا كان عمنا ابن بطوطة قد خرج على ظهر بغلته من طنجة إلى تلمسان بالجزائر ، ومن تلمسان إلى صفاقس بتونس ، ومن صفاقس إلى برقة فى ليبيا ، ومن برقة إلى الاسكندرية فى بر مصر ، وقد قطع المسافة كلها على ظهر البغلة ، فلم يتوقف إلا لينام ولم يتمهل إلا ليستريح .. اذا كان عمنا ابن بطوطة ، قد قطع المسافة كلها آخر راحة وآخر انسجام ، فالسفر من القاهرة إلى ليبيا اليوم محنة ولا محنة الحسين ابن على فى يوم كربلاء .

ومع أن الجغرافيا تقول إن مصر وليبيا دولتان متجاورتان ، إلا أن الجغرافيا السياسية تفرض على العبد لله اذا أراد السفر إلى ليبيا ، أن ينتقل أولا من القاهرة إلى اليونان ، وكل انسان حر يركب الطائرة أو يركب البحر . فاذا ركب الطائرة فقد يخطفه زعيم منظمة برمهات الأصفر ، وسر الخطف أنه زعلان مقهور ويشعر بإحباط ويقدس الحياة الزوجية ، ولكنه يريد أن ينتقم من أجل كامب ديفيد . ولايمكن القضاء على كامب ديفيد ، إلا بذبح عشرة صعايدة ، وإحراق جثث خمسة جدعان من المنوفية ، وخنق امرأة وطفلها من بنى سويف . ولذلك فخطف الطائرة وإحراقها هو واجب قومى ، وهو نضال يستوعب هموم الأمة ، ويصوغها ثم يعيدها إليها حتى لا تصبح عصية عن استيعاب هموم المرحلة !! ولكى يظل الحل مؤجلا حتى يتم العثور على حل عن طريق الثورة المستمرة لهذا المأزق التاريخى العصيب ! وحتى اذا وصلت الطائرة إلى اليونان فسيأخذ الطائرة إلى طرابلس . وسيعلم الله وحده ماالذى سيحدث له أثناء التفتيش فى الجمارك والمكوس ، وزمان ذهب عمنا ابن

بطوطة إلى الخليج ، وقطعه ذهابا وايابا ، ولا سؤال ولا جواب ، ولا تحقيق ولا تفتيش ، ولكن الآن .. فى زمن العبد لله ، يحتاج المسافر إلى الخليج إلى (كفيل) ! وزمان كان الكفيل للقاصر واليتيم ، أما اليوم فى زمن العبد لله ، فهو للصحفى والمستشار والطبيب . دليل على أن أولاد يعرب قد صاروا فى هذا الزمان يتامى ومشردين ! .

لشد ماتغيرت الأحوال منذ عهد عمنا ابن بطوطة ، إلى عهد أخيكم ابن عطوطة ، الذى داخ مثل عمنا زكريا الحجاوى السبع دوخات ، ولذلك ستكون رحلة ابن عطوطة على مقاس التأشيرات التى حصلنا عليها ، وإذن العمل الذى سمح لنا به ، ولأننا انشغلنا أثناء الرحلة فى العثور على تأشيرة والبحث عن كفيل ، ولأن أغلب وقتنا ضاع بين الجمارك والجوازات وشرطة الحدود ولم يبق إلا أقله للكتابة .

وفى أيام عمنا ابن بطوطة لم يكن يصدع دماغه شيء ، فلم تكن قد نشأت بعد إذاعة صوت العرب ، ولا إذاعة صوت العروبة ، ولا إذاعة حوض البحر الأبيض المتوسط ، ولم يكن حزب البعث المشتراكى قد اهتم بالمشكلات الكثيرة ، التى تتعلق بالمفاهيم والمصطلحات المستخدمة فى التعبير عن إطار ومضمون المصالح الحيوية الحقيقية ، بقدر الاهتمام الزائد والملحوظ بهذه التقاليد التى اقترنت بهذا التفكير الواعد بأمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة !! ...

وياللى انكتب عليك العط
اصبر دا الرب مش ناسى

ولم يكن فى زمن عمنا ابن بطوطة قد تم طبع الكتاب الأخضر المسخسخ حيث الشمولية الكونية التى تبدأ وتنداح وتترحرح وتتموج وتتسع على ثلاث مراحل : عربيا فى البداية ، إسلاميا بعد ذلك ، كونيا فى النهاية ..

وياللى انكتب عليك العط
اصبر دا الرب مش ناسى

ولم تكن اتفاقيات كامب ديفيد قد عرفت طريقها الى الحياة بعد ، والسبب أن ديفيد نفسه لم يكن له وجود ، كان ديفيد فى زمن عمنا ابن بطوطة يشتغل فى اصطبلات مولانا السلطان ، وكان ميمون اليهودى يشتغل طبيبا فى قصر السلطان ، كان اليهودى مجرد مواطن فى الإمبراطورية العربية ، يشكر ربه اناء الليل وأطراف النهار لوجوده فى بلاد العرب بعيدا عن أوروبا ، حيث محاكم التفتيش وأفران حرق البشر عمال على بطال . فى ذلك الزمان البعيد السعيد لم يكن فى بلاد العرب ألف تنظيم وتنظيم ، وكلها تهدد وتتوعد ، وتعد بالتحرير والتعمير ، وينتهى أمرها جميعا ، الى اغتيال صحافى فى روما ، وتلميذ فى لندن ، وصايع فى اليونان ، أما التحرير فستجد تحريرا كثيرا فى صحف النضال التى تصدر فى الخارج ، أما التعمير فما أحلى التعمير والتعميرة على أى رصيف فى وطننا السعيد ومن شاطىء الخليج إلى شاطىء المحيط ..

وياللى انكتب عليك العط
اصبر دا الرب مش ناسى

ولم يكن فى زمن عمنا ابن بطوطة أفلام من إنتاج على حبلص ، ولا فوازير من إخراج سعد أبو كتاف ، ولا مطربون كهؤلاء الذين سدوا علينا عين الشمس فى هذا الزمان . ولم يكن فى بلاد العرب أيام عمنا ابن بطوطة شركات من نوع منوفكو ، وعبد العاطكو ، وعبد العزيزكو . وكان الفلاحون فى زمانه ، انتاجهم وفير وخيرهم كثير ، وموائدهم ممدودة للعابر وابن السبيل . وقد لاحظ عمنا ابن بطوطة هذا الأمر ، فدون فى رحلاته يقول : والمسافر فى بر مصر لا يحتاج الى حمل زواده معه، لأن خير الريف وفير ومبذول وعلى طول الطريق . الآن صارت فراخ الفلاحين هى فراخ الجمعية ، وسمن الفلاحين

هى السمن الهولندى ، وعيش الفلاحين يخبز فى الفرن الأفرنجى ...

ويا آسفاه على الفرق الرهيب بين زمان العبد لله ، وزمان عمنا ابن بطوطة !.

كان أبطالنا فى زمانه ، من نوع المظفر قطز ، والظاهر بيبرس ، والناصر صلاح الدين ، واليوم صار أبطالنا الساحر الخطيب ، والنجم محمود يس ، والسيد العقيد ، والأخ المناضل ، والمجاهد الأكبر ، وطويل العمر .

أسماء وألقاب ، ونياشين ورتب وسيوف وصولجانات .. وهلمة ..

وياللى انكتب عليك العط
اصبر دا الرب مش ناسى

ولأنه ، سبحانه مش ناسى ، أسأله اللهم أن يكفينا شر العط ، وأن يبعد عنا المخبرين والبصاصين ، وأن ينقذنا من شر العسس والناس اللبط ، وأن يحفظنا من شر أولاد الحرام وأولاد الحلال أيضا ، وأن يشملنا بعطفه ورحمته حتى نجوب كل بلاد ولد عدنان .. أمين يارب العالمين .

ياعينى على طنجة !

رحلة العبد لله بدأت فى قلب العواصف، كانت قمم الجبال فى الجزائر تشتعل بالنار، وكان الملك محمد الخامس عائداً لتوه من المنفى، وتونس على عتبة عصر الاستقلال، وكانت شعارات القومية مرفوعة، ورايات الثورة خفاقة، وطبولها تدق فى كل مكان.

ولقد بدأت رحلتى من القاهرة إلى روما، ومن روما إلى مدريد، ومن مدريد إلى طنجة، لأنه كان صعباً علينا نحن العرب أن نخترق أرض العرب، ففى ليبيا كانت هناك ثلاثة جيوش أجنبية: انجليزية وفرنسية وأمريكية، والحدود بين مصر وليبيا مقفولة وفى ليبيا خائن اسمه المشلح، أو المتشلح، أو الشلحاوى، يشرف على بناء سور مثل سور برلين يعزل مصر عن ليبيا ؟ وكان دخول ليبيا بالنسبة للمصرى أصعب من دخول إبليس الجنة، وكان على العبد لله إذا أراد الذهاب إلى المغرب أن يمر عبر أوربا.. وهكذا كان.

وانتظرت شهراً فى مدريد للحصول على تأشيرة دخول للمغرب، وكنت

محظوظاً لأننى كنت أول بنى آدم فى العالم يحصل على التأشيرة رقم ١ لأول حكومة بعد الاستقلال فى المغرب، وطرت فى الليل من مدريد على متن طائرة أسبانية، طائرة مبطوحة ومجروحة وكما لعبة الأطفال، راحت تتأرجح وتتمرجح، وخيل إلىَّ وأنا فى الجو اتشقلب واتمقلب، أننى اخطأت التقدير، وبدلا من أن أركب طائرة بمحرك واحد ركبت طائرة بجناح واحد، ولولا العيب والفضيحة لوقفت وسط الطائرة ألطم الخدود وأشق الجيوب على طريقة ستات الجاهلية! المهم.. نزلنا طنجة فى الليل وخرجنا من المطار سبهللة، فلا تأشيرة ولا تكديرة، فقد كانت طنجة مفندقة، وأبوابها مفتوحة على جهنم الحمراء، وفيها سبع حكومات وسبعة حكام، وخمسون ألف عربى ومائة ألف أجنبى كلهم جواسيس! وفى طنجة مائة نوع من العملة، وعشر لغات، والكل فرحان وسعيد وقابض ومسرور، إلا صنف العرب.. آخر فقر وآخر بهدلة! عندما ذهبت إلى فندق المنزه على شاطىء المضيق، نظر موظف الفندق الى العبد لله باحتقار، وقال: لا توجد أماكن هنا، وعندما بدا على سحنتى أننى لم أفهم، أعاد علىَّ الكلمات بغلظة، فلما كلمته بالانجليزية انحنى كرقم ٦، وضرب تعظيم سلام، وقال: عفواً سيدى ظننتك من أهل البلاد، وخصص لى غرفة فاخرة على البحر، وحمل حقائبى بنفسه الى الغرفة.

كانت طنجة تضيق بكل البضائع من كل أنحاء الأرض، وكانت تموج بكل الأصناف والأشكال من صنف البنى آدمين، فقد كانت طنجة دولية.. لا قانون ولا أخلاق ولا تقاليد، المهم الربح من أى طريق وعن أى طريق! قادنى ولد هندى فى اليوم التالى وسار بى عبر حارات وأزقة ومسالك، ودخلنا من باب سميك وهبطنا بضع درجات تحت الأرض، ووصلنا إلى سرداب شاهدت فيه عدة أشخاص، كانوا فيما مضى من صنف البنى آدمين، والكل مسطول ومنسجم وشارد مع أحلامه أو مع أوهامه، وحلقات الدخان فوق الرؤوس تنعقد وتنفرط، آخر سعادة وآخر ضياع، وجلست مع القوم وهم يدخنون (الكيف)، اتفرج على الوجوه المجدورة والأيدى المعروقة، وخيبة الأمل التى تركب

جمل، وللأسف كل الرواد كانوا من صنف العرب، ولكن صاحب الماخور خواجة من بلاد البرتغال، وخدم الماخور من بلاد الهند، والحشيش تركى ولبنانى وهندى ومغربى! وعلى شاطىء طنجة رأيت أجمل نسوان الأرض، يعرضن على المكشوف وعلى المفتوح، وكل شىء ظاهر وباين وعلى عينك يا تاجر، والست الحشمة تغطى نفسها بطابع بريد، والشاطىء نفسه كالجنة، ورود نابتة من الأرض وورود ماشية على الأرض، وفلوس كموج البحر تأتى وتروح، وأطعمة تلقى للأسماك تكفى سكان الصومال، وخمور تراق على الأرض كأنها أمطار الصيف فى السودان، وكل العرايا على الشاطىء خواجات، وكل الخدامين عرب مغاربة، والكل يرطن بلسان واحد، بفعل الاستعمار فقد العرب لسانهم وتكلموا بلسان الأعداء !.

كانت طنجة بحق - أيام حكم الخواجات - هى بلد التجارة والدعارة، ولكن الجاسوسية كانت أربح تجارة على الإطلاق. وكان معى فى الطائرة التى أقلتنى إلى طنجة ولد مصرى صميم، مغامر وعلى موعد مع الموت فى كل لحظة، قلبه ميت لا يعرف الخوف، وكان عين مصر فى شمال إفريقيا، وكان هو الجسر بين الثورة المصرية والثورة الجزائرية، الولد اسمه **عبد المنعم النجار**، وكانت وظيفته الرسمية، ملحق مصر العسكرى فى مدريد، وترقى بعد ذلك فصار سفيراً لمصر فى باريس، ثم سفيراً لمصر فى بغداد، وأعتقد أنه يعيش فى مصر على المعاش.. لقد طواه النسيان ولعل هذا النسيان هو ثمن تلك الأيام المجيدة العظيمة الماضية. وبسبب عبد المنعم النجار تبعنا منذ أول لحظة عشرة جواسيس يعملون لحساب عشر جهات، وحذرنى عبد المنعم النجار طالما أنا فى طنجة، فالكلام ممنوع، والذهاب إلى مجاهل طنجة ممنوع، والحديث مع الغرباء ممنوع، لأن النجار نفسه جاء إلى طنجة فى مهمة من أجل الثورة العربية فى الجزائر: كان فى طريقه لشراء أجهزة لاسلكية تحتاجها الثورة، وكل شىء حاضر، الفلوس حاضرة والأجهزة موجودة، ولكن البائع الايطالى رفض تسلم الثمن بالبيزتا الأسبانى، وأصر على أن يتقاضى الثمن بالدولار، ولذلك دخنا دوخة الأرملة العجوز ونحن نحول البيزتات الى

دولارات، وجاء مندوب الثورة وحمل الأجهزة فى شاحنتين ومضى فى ظلام الليل إلى المجهول! وانتهت مهمة النجار وعاد الى مدريد، وبقيت وحدى وسط غابة الوحوش أحذر أن أتكلم، أحذر أن اتمشى، أحذر أن اتفرج، وأغلقت حجرتى على نفسى لأنجو من المعارك والمهالك، ولكن منظر مندوب ثورة الجزائر لم يفارقنى لحظة، اسمه الحركى إدريس، وهو أشبه ما يكون بقائد ألمانى عظيم، الرأس محلوق تماماً، الملامح محددة فيها شىء من عنف المقاتل ورقة الفنان، صامت لا يتكلم كأنه لا يعرف ما هو الكلام، إذا سألته لا يجيب، لم أسمع صوته إلا مرة واحدة عندما ودعته على حدود طنجة، قلت له: قريباً نلتقى فى الجزائر، فهتف قائلا: الله كريم! .

كانت معركة الجزائر هى أشرس معارك العرب ضد خواجات أوروبا المتغطرسين، كانت بلاد العرب فى رأيهم هى مزرعة أوروبا.. لا تزيد! وكان جيش التحرير الجزائرى فى واقع الأمر، هو جيش الانتقام الذى قام ليثأر من سنوات الذل والجوع، ولم يجمع العرب فى تاريخهم الحديث على شىء قدر إجماعهم على ثورة الجزائر، ولم يلتف العرب حول شىء التفافهم حول ثورة الجزائر، وحظ العرب والجزائر أن الطقس كان مناسباً، والريح كانت مواتية! .

وإدريس ذهب إلى الجزائر، وأنا حبيس الفندق لا أبرحه، فى انتظار من سوف يحضر ليصحبنى معه عبر صحراء وجدة إلى قمم الجبال حول تلمسان، وفجأة دق الباب وانخلع قلبى، فلم يكن هناك مفر من فتح الباب، واكتشفت أنه على الباب أنثى تحشر نفسها فى بنطلون، كان ذلك منذ ثلاثة وثلاثين عاماً ولم أكن قد رأيت بنطلوناً على ستات المشرق، وقالت الست المتبنطلة: « ألق عندك لوكيد؟» ، وقلت للست: أفندم؟ أعادت الست الكلمات نفسها بالحروف نفسها وباللكنة نفسها، قلت فى نفسى أعوذ بالله من شر الشيطان الرجيم، وأغلقت الباب ودخلت، ولكن لأن العبد لله مهذب فقد أغلقت الباب على نفسى، وعليها!! واستفسرت من الست واستفهمت حتى فهمت، فقد كانت تريد عود

(كبريت) كما يقولون فى مصر، وعود (شخاط) كما يقولون فى العراق، وعود (ثقاب) كما قال عمنا ابن مالك صاحب الألفية التى عطلت لغة العرب وسجنتها فى زنزانة لها قضبان من ألف بيت من أسخف الشعر! وحكت الست قصتها، وهدأت وأطمأنت للعبد لله وسرت سروراً عظيماً عندما قلت لها: إننى تاجر باكستانى أبيع الخز والحرير، وأننى فى رحلة تجارة وشطارة عبر بلاد الله وخلق الله، وقالت البنت: أنا مغربية من طنجة، بدأت خادمة فى بيت أحد الطليان. وكان الولد الطليانى تاجراً وفاجراً، لأن تجارته كانت فى صنف الأعراض، والبنت الخدامة لأنها كانت مدورة ومكورة فقد وقع اختياره عليها لتقديمها كبضاعة جديدة فى الأسواق، وعندما حدث المقسوم والمعلوم، بكت البنت وشكت، وذهبت إلى حاكم طنجة الأسبانى، ولكنها اكتشفت أن الطليانى للأسبانى كالبنيان المرصوص يسند بعضه بعضاً، ومع أن البنت كانت قاصراً، فحادث من هذا النوع يعتبر جريمة حتى فى بلاد الطليان، ولكن ما دام الجانى خواجة والضحية عربية فلا بأس ولا جناح، فهكذا كانت الأحوال فى بلاد العرب منذ أكثر من ثلاثين عاماً من الزمان: أهل البلاد يستعبدون فى أرضهم، وصيّاع أوروبا هم أصحاب الأمر والنهى فى بلاد الأعراب.

هكذا كان الحال فى بلاد العرب قبل أن يولد قراء هذه السطور من الشباب، ولكن الحمد لله لأن المولى العزيز أنقذ الجيل الجديد من البلاوى التى عاصرها جيلى.. الذى أعتقد أنه أغلب جيل منذ الجيل الذى شهد دخول ابن عثمان وغزوه لبلاد العرب من حلب إلى صنعاء. ما علينا ، فقد احتملنا كل المصائب وتجاوزنا كل العقبات وانتصرنا وانهزمنا، وعلى الجيل الجديد أن يواصل المهمة ليجعل الحياة أجمل مما كانت وأفضل مما كانت، هذا دوره الحقيقى، وما عداه مجرد خزعبلات!.

ويا ميت حلاوة على البنت المغربية، أحلى بنات الأمة العربية وأكثرهن رقة، وأقربهن إلى بنات لندن وحسناوات باريس، وفى عيون المغربية رغبة، وفى جسدها نتوءات واختناقات وانبعاجات، معمولة حسب مقاييس ومواصفات

وطبقاً لخطة موضوعة. وأنا ـ والحق أقول ـ أحببت المغربية من أول نظرة، ليست مغربية بالاسم أو بالرسم، لكنها المغربية على الإطلاق !.

ولقد تمنيت يوماً، أن أقضى السنوات الأخيرة من عمرى فى مدينة على شاطئ البحر الأبيض اسمها تطوان. والناس فى تطوان خليط من أصل عربى وأسبانى، وسبحان من جمع الشامى على المغربى فأنتج هذا العصير الخرافى من صنف النسوان! والبنت من دول إذا نزلت على الشاطىء سترى جلدها مشدوداً، سبحان الذى أبدع، كأنه جلد طبلة مشدود على وهج النار، فلا هبشة ولا خدشة، ولا عضة ولا رضة، ولا ترهلات ولا كرمشات. وليس الجسد وحده هو سر سحر المغربية، ولكنها الروح أيضاً، فما أشد جرأة المغربية وما أعظم تحررها، بالرغم من اختفاء الوجه أحياناً تحت الحجاب! والرجل المغربى ما أكرمه، فى السلم فنان وفى الحرب ولا أسد جوعان، وفى حرب أكتوبر مثلا ادعت إسرائيل أن الجنود المغاربة الذين كانوا يقاتلون على الجبهتين أكلوا بعض عساكر إسرائيل أحياء، وهو ادعاء كاذب بالطبع، ولكنه يعطيك فكرة عن الرجل المغربى إذا شمر ساعده للقتال.

وتجولت فى أنحاء المغرب بزى مغربى ولهجة مصرية، وعشت أياماً بين طنجة والقنيطرة وسلا والرباط والدار البيضاء وفاس ومكناس وخنيفرة ووجدة وتطوان. وأستطيع أن أقول وأنا مطمئن البال إنه ليس أجمل من أوروبا إلا المغرب، وليس أجمل من المغرب إلا جنة رضوان. ولكن أوفقير الشيطان حول الجنة يوماً ما إلى جهنم الحمراء، وجعل من الأسود الضوارى أرانب برية تظهر فى الظلمة وتختفى فى النهار، وحول المغرب إلى منطقة طرد بعد أن كانت منطقة جذب .. لعنة الله على الحاكم الظالم لأنه أشد وطأة على البنى آدمين من الوحش الجوعان! والظلم قديم قدم الانسان، وزمان كان الحكام ظلمة، ولكن وسائلهم كانت بسيطة.. عندما هرب عبد الرحمن الأحدب من عساكر العباسيين بعد كسرة بنى أمية فى معركة الزاب ، لم تستطع العساكر أن تلحق به، وتركوه يعبر النهر أمام أعينهم، ثم اختفى بعد ذلك فلم يعثروا له على

أثر، والسبب أن السلطان لم يكن لديه سيارات نجدة ولا طائرات هليكوبتر ولا أجهزة لاسلكى، ولم تكن له مباحث عامة، ومباحث أمن دولة، ومباحث جنائية، ومخابرات، وقيادة قومية، وقيادة قطرية ، وأحزاب تشتغل بالتجسس. ولم يكن لدى السلطان القديم عساكر حدود وأجهزة للتنصت ومراقبة على التليفونات. كان السلطان مجرد بنى آدم مثل غيره من البنى آدمين، والفرص متساوية بين السلطان ومن يعارض السلطان، المهم ألا يقبض عليك بيديه، وإذا لم يفعل فأنت إذن حر وحياتك فى أمان! .

وفى تاريخ مصر مثلا، رجل اسمه أحمد بوشناق، كان خادماً لدى على بك الكبير، وأفشى سراً لسيده فاستدعاه على الكبير ذات مساء، وسأله فى خبث: ما جزاء من يفشى للسر؟ وأجاب أحمد بوشناق: الموت، وقال على بك الكبير وهو يتنهد ارتياحاً: أنت حكمت! ثم خلع عليه الخلعة ومد له السماط فأيقن بوشناق أنه هالك، فاستأذن سيده فى أن يتوضأ ويصلى فأذن له، فلما خرج إلى فناء الدار قفز على حصانه، وانطلق به هارباً من دار على بك الكبير فى حارة الداودية فى شارع محمد على قاصداً وجه بحرى. ورغم جبروت على بك الكبير، ورغم دولته المهيبة، لم يستطع أن يعثر على أحمد بوشناق، واختفى الهارب سنوات طويلة، ثم ظهر بعد ذلك والياً على عكا وباسم آخر.. أحمد باشا الجزار! مسكين أحمد باشا الجزار، لو أنه يعيش فى عصرنا وغضب عليه السلطان وفر هارباً، لظفر به السلطان ولو كان فى بلاد الواق واق.

ويا أسفى على المغرب العربى فى ذلك الزمان فالكلام عربى واللكنة فرنسية، والبنت المغربية ترتدى العباءة ومن تحت العباءة المينى جيب، والرجل المغربى يتكلم العربية ويفكر بالفرنساوى. وأنا عشت أياماً كثيرة فى المغرب أيام سطوة أوفقير وعنفوانه، وشعرت كيف يعيش الانسان مرعوباً وهو يتنزه، مرعوباً وهو يعمل، مرعوباً وهو يأكل، مرعوباً وهو يهضم، مرعوباً وهو نائم، مرعوباً وهو مرعوب!.

وإذا كنت أنا الغلبان العدمان قد شعرت وتعلمت، فأنا لا أعتقد أن أحداً من

السادة الطغاة قد فهم الدرس أو تعلم! ولا يزال يعيش فى أرجاء الأرض العربية مائة أوفقير وأوفقير ، وعذرنا الوحيد أن درس الماضى يؤكد أن النتائج التى انتهت إليها أحداث الأمس هى نفسها التى ستتحقق فى المستقبل! حكمة إلهية لكى تنمو الحياة وتستمر بالرغم من أنوف الطغاة. ولقد كنت محظوظاً عندما ألقت بى الظروف فى مدينة خنيفرة، ونمت ليلتى هناك عند القائد **مهروق** زعيم قبائل البربر، وفى لحظة واحدة تبخرت كل معلوماتى التى قضيت أعواماً كثيرة فى تحصيلها، فالمدرسة الفرنسية تزعم أنهم من الجرمان، وأنهم عبروا أوروبا حتى وصلوا إلى الأندلس، ثم عبروا المضيق واستقروا فى شمال إفريقيا. والمدرسة الألمانية تقول إنهم من اليمن، وأنهم عبروا آسيا إلى أوروبا ثم انحدروا إلى الشمال الإفريقى .. مدارس وعلماء وكتب وفنون ومتاحف ومعارض كلها شغل أوروبا؟ وككل أشغال أوروبا فهى أشياء لامعة وملعلطة وفلصو! وفى ضيافة القائد مهروق أدركت أن البربر عرب أقحاح من نسل قحطان! وقد تكون المدرسة الألمانية أقرب إلى الحقيقة ولكنها ليست الحقيقة كاملة. إنهم عرب من بطون وأفخاذ قبائل قديمة، تعرضوا للارهاب والغزو والغدر فآثروا الهجرة قبل الاسلام. ونحن عرب هذه الأيام لا نعرف كثيراً عن عرب الجاهلية. لابد أن البربر هؤلاء خرجوا فى تغريبة مثل **تغريبة بنى هلال**، ولذلك سترى البربر فى واحة سيوه فى صحراء مصر، وستراهم على حدود موريتانيا، وسترى بعضهم فى تشاد وفى السنغال. وأغلب الظن أنهم لم يذهبوا إلى أوروبا ولم يبصروها على الاطلاق، بل إنهم انحدروا من اليمن إلى صحراء سيناء الى المحروسة مصر الى الشمال الإفريقى. ولكن، لأن أوروبا مصرة، ومصممة على أن يكون كل شىء وأى شىء عبر حضارة أوروبا، فلابد أن يكون البربر قد ذهبوا إلى أوروبا!.

والحمد لله الذى جعل بتوع أوروبا لا يصرون على أن سيدنا عيسى بن مريم سافر وتجول فى أوروبا، وأن موسى استقر بعض الوقت مع أخيه فى أوروبا! الحمد لله الذى جعل بتوع أوروبا لا يزعمون هذا الزعم! أما البربر فدليلى

معى أفقأ به عيون علماء أوروبا، وهل هناك دليل أسطع من أن أعظم ثوار الشمال الافريقى كانوا من صنف البربر، وكانت غايتهم العروبة ورايتهم الاسلام: **طارق بن زياد** كان بربرياً، **ومصطفى بن بولعيد** أعظم شهداء ثورة الجزائر كان بربرياً، وبين طارق وبولعيد ـ وعلى بعد المسافة بين القرن السابع والقرن العشرين ـ ستجد مئات من أبطال العروبة كلهم من جنس البربر، وما عدا هذا من روايات وحكايات فكلها تفانين أوروبية، وتحشيش خواجاتى، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ويا قوة الله على المغرب .. تمشيت أفرنجى فى أرجائه لمدة شهر اتسكع على شاطىء المحيط، اتمشكح على شاطىء المضيق، أرنو بعينين دامعتين الى الشاطىء الآخر فى الأندلس، كانت لنا هناك يوماً ما دولة وصولة، وكان أجدادنا الميامين يعيشون هناك فى عز وعزة، ثم تغلب عليهم حب الرياسة، فتقاتلوا بالحراب وبالسيوف وبالفئوس، فلما تكسرت تجاذبوا بالشعور، ثم نهشوا لحوم بعضهم بعضاً بالأنياب والضروس! وبكى آخر ملك عربى فى الأندلس وهو يغادر الشاطىء الأوروبى إلى الشاطىء الافريقى، فقالت له أمه ساخرة: «ابك كالنساء على ملك لم تستطع أن تحافظ عليه كالرجال» . ما أبلغ حكمة الأم العجوز لابنها المتهالك المتهافت! فقد الأرض، وفقد العرض، فراح يبكى كالنساء.. ملعون أبوه! .

درس القرون الماضية لم نتعلمه، ولم نستفد منه شيئاً، عادت ريمة لعادتها القديمة، انفتاح وانفشاخ وتكالب وتصالح، ولكن أحداً من السادة الأباعد لم يجد أماً تصرخ فى وجهه « ابك كالنساء على أرض لم تستطع أن تحافظ عليها كالرجال». ومن مراكش إلى وجدة، أنا قطعت أرض الله، عليها وحواليها مزارع ممدودة، وخيرات مبذولة، وكنوز مدفونة، وجو ولا جو أوروبا، وخضرة ولا الخضار الطازج فى أسواق بلدنا، وناس ما أحلاهم وما أشهاهم. ولكن الخيبة القوية من دمشق الى الاسكندرية أننى حاولت الكلام مع أحدهم فلم يفهم ماذا أرغب، أنا العربى ابن العربى اتكلم مع أخى العربى فلا يعى، ويتكلم

معه الخواجة فيلبى ويجرى كالنحلة. ولكن عذرى أننى الآن فى وجدة، والجزائر على مرمى حجر منى، والرجل الذى تحدثت معه ولم يفهم (جزائرى) صار أبكم تحت حكم الاستعمار. ولكن ها هى الجزائر أخيراً، وغداً ندخل الأرض التى أكلت من الجثث حتى شبعت وشربت من الدماء حتى ارتوت. ووجدت نفسى اهتف رغماً عنى : «يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف!».

نهاية التيوس !

وعندما وصلت إلى وجدة رأيت بصيصا من الأمل : معسكر الثورة الجزائرية وعلم الجزائر يخفق عليه ، وأبناء الجزائر يقبضون على السلاح للكفاح فى عزيمة وحوش الغاب . ونمت ليلة فى معسكر (العربى بن مهيدى) ، شهيد من شهداء الثورة التى أكلت من الرجال حتى شبعت ، وشربت من الدماء حتى ارتوت ! وكان معى عمنا العجوز الصحافى الكاتب العاشق الأبدى لتراب مصر المحروسة ، محمد عودة ، وكان ثالثنا فى الغرفة الصغيرة التى احتوتنا أحد سيوف الثورة وقائد جيشها الباسل الكولونيل بومدين ، الرئيس بومدين بعد الاستقلال . كان بومدين يدخن باستمرار ، وعيناه اللتان تشبهان عينى الصقر تحدقان عبر أسلاك المعسكر إلى حدود الجزائر . كان يتكلم عن مستقبل الجزائر كأنه يقرأ فى كتاب مفتوح . ولم يكن فى الحجرة شيء إلا الأثاث الذى يستعمله الجنود ، وعلى الحيطان مجموعة صور متناثرة : صورتا جنرال جياب وماوتسى تونج ،

وتتوسطهما صورة عبد الناصر . كان بومدين يحلم بجزائر عربية واشتراكية . كان يرى أن الوطن العربى مهيض الجناح لأن المغرب العربى فى أسوأ حالاته . كان يردد بيت شعر للمتنبى :

ولست أرى فى عيوب الناس عيبا
كنقص القـادرين على التمـام

مصيبة العرب الكبرى أن لديهم الإمكانات لتحقيق الأمجاد نفسها التى حققها أسلافهم ، ولكنهم بدلا من الغزوات فى سبيل الله ، راحوا يغزون فى سبيل المتعة ، وتحولت **القادسية** إلى فريق لكرة القدم ! **ومرج دابق** وقع فى أسر اليهود ! **وصلاح الدين** أصبح محلا لبيع أجهزة التليفزيون فى القاهرة ! **والظاهر بيبرس** لم يعد أحد يذكره إلا شاعر الربابة ! وقادة بعض البلاد مشغولون الآن بإقامة الحد على الفقراء من المسلمين ، ومتفرغون بعد ذلك للصلاة فى أندية لندن ، والصيام فى مواخير باريس ! كأنما حدود الله من نصيب الفقراء ، أما الأغنياء فهم بالطبع .. أحباب الله !.

مجموع ماأنفقته قبائل بنى كلب على موائد القمار فى لندن ذات عام بلغ عشرة ملايين جنيه . وقبائل بنى كلب هم الرعاع من قبيلة بنى كليب . أما شيوخ بنى كليب أنفسهم فقد أنفقوا على موائد القمار مليار جنيه ! هذا عدا وجوه الإنفاق الأخرى التى اكتشفها بنو كليب : من أول الويسكى إلى الكافيار ، إلى الهزار ، الى لهط اللحم الأبيض . وهى تكاليف ماأنفقها أحد من قبل وعلى مر العصور ، ومن الليلة بتاعة شمشون وحتى الآن ! .

ولكن معسكر العربى بن مهيدى يقف وسط الأرض الخراب كمشعل نور لعرب المستقبل ! عرب يرفعون اسم الله ، وينشرون عدله ويمهدون سبله ، ويقيمون حدوده على أنفسهم قبل الغير ! .

وكان معسكر العربى بن مهيدى كحمام لتطهير النفس قبل أن نجتاز حدود

المغرب إلى أرض الأبطال والشهداء .. الجزائر . ولا أنسى لحظة وقفت فيها على الحدود أخلع نعلى حتى لا ألوث أرض العزة والثورة ! .

وعبرت حدود الجزائر . وسجدت أطبع قبلة على أرضها . التراب معجون بدم الشهداء ، والهواء يضيق بمئات الألوف من الأرواح التى ماتت لتحيا الجزائر . ولقد لفت نظرى وجود بنات يحملن السلاح مع الثوار . ولم أكن قد رأيت لدى عرب الشرق بنات يحملن السلاح قط ! هذه إذن ثورة رائدة لأنها كسرت جدران السجن المفروض على صنف الحريم العرب ، فنصف الأمة كان معطلا ، وهاهو الباب الآن بدأ ينفتح .. ولكن بقدر ! .

ولقد كانت على أرض الثورة فى الجزائر ثلاث فصائل ، وثلاث وجهات نظر . حزب **مصالى الحاج** ، وهو زعيم وطنى تقليدى عيبه الوحيد أنه كان لحظة اشتعال الثورة قد أصبح خارج الزمن . ولذلك اندهش كثيرا لأن مجموعة من الشباب قد تجرءوا وأعلنوا الثورة دون استئذانه ، وهو من هو ! هو مصالى الحاج .. الذى عنده تبدأ الجزائر واليه تنتهى ! ولقد ألف جيشا للتحرير مهمته الأولى والأخيرة هى تحرير الجزائر من الفرنسيين ومن جيش التحرير أيضا ! ونشبت معارك الهول بين الجيشين ، وانتهت بتصفية مصالى الحاج وجيشه ، ومات الرجل يرحمه الله ، دون أن يدرك سر القوة الكامنة فى هذا الجيل الجديد الذى أشعل الثورة وانتصر فيها .

ثم **الحزب الشيوعى الجزائرى** ، وهو فرع من الحزب الشيوعى الفرنسى . ولقد أعمته جدران النظرية التى حبس داخلها ، فلم ير زهور الجزائر الجديدة التى رفعت رأسها تبحث عن شمس الحرية ، وأصمت أذنيه فلم يسمع صيحات القومية التى راحت تتصاعد فى سماء الوطن العربى باحثة فى ماضيها البعيد عن مستقبل أفضل لها ، ولم يشعر برياح العروبة تهب ساخنة عبر الحدود والسدود ، تقتلع كل من يتحداها أو يقف فى وجهها . ولذلك رفع شعار (تحرير الجزائر يبدأ من تحرير باريس) و .. (الاستعماريون الفرنسيون يستعمرون فرنسا والجزائر معا) . وكان معنى ذلك فى بساطة هو أن تحرير الطبقة خير

من تحرير الوطن . ولم يكن لدى شعب الجزائر استعداد للاستماع إلى مثل هذا الكلام ، وكيف يمكن أن يصغى شعب لكلام من هذا النوع ، وقد استبيح دينه وأرضه وعرضه ، ولم يبق لديه شيء لم يستبح ؟! ولذلك انطلق الرصاص فى صدور أعضاء الحزب الشيوعى الجزائرى ولقوا جزاء الخونة ! خطأ فى التحليل ؟ نعم ، ولكن أدى إلى مأساة مروعة ! ..

وكان الاتجاه الثالث هو الاتجاه الصحيح ، وهو الذى انتصر . وقد بدأت **الثورة** ببيان صغير إلى شعب الجزائر ، وبخمس عشرة بندقية صيد ، ولكنها انتهت بالقضاء على فرنسا الجنرال لاكوست ، وحطمت الجمهورية الرابعة . ومن أجل هذه النهاية السعيدة ، خاضت الثورة فى بحار من الدم . وكما أكلت الحرب زهرة شباب الجزائر ، أكلت خيرة بنيها ، ولكننا ، رغم كل شيء ، ربحنا الجزائر المستقلة العربية المجيدة . ولقد استمعت إلى **وردة الجزائرية** أول مرة داخل أرض الجزائر ، وبالتحديد فى مكان ما على قمم التلال المطلة على تلمسان الجميلة . كان الثوار يحتفظون لها بأغنية على شريط ، أغنية حزينة تقول « **كلنا جميلة ، كلنا فداها** » ..

وتعرفت على أدب الجزائر وأنا أنقل الخطى بين القرى المتناثرة فى الجبال وهزتنى روايات **محمد ديب** ، ولكن رواية (**التيوس**) **لإدريس الشرايبى** هى التى أصابتنى بالحمى . رواية تكشف عن مأساة المغرب العربى ، بعمق وبأستاذية . وهو روائى عالمى بكل مقاييس العالمية . إنه شتاينبك الأمريكى ، وسمرست موم الانجليزى ، وديستوفسكى الروسى ! وهو قمة لا أعتقد أن أحدا من كتاب العرب الروائيين وصل إليها حتى الآن . عيبه الوحيد أنه يكتب بالفرنسية ، وهو العيب الذى من أجله قامت الثورة على فرنسا . فلم يكن إدريس الشرايبى وحده هو الذى كتب عليه أن ينسى لغته وأن يتكلم لغة فرنسا ، بل كان هذا مصير شعب الجزائر كله .

فقد أرادوا الجزائر ، شاطئا للاستحمام ، ومزرعة للكروم ، ومكانا استراتيجيا للقواعد العسكرية ، وسوقا لتصريف البضائع ، وحظيرة لتربية

الأيدى العاملة الرخيصة والمنتجة ! فهل نجحت فرنسا ؟ الواقع يقول لا ، **لأنك تريد وأنا أريد ، والله يفعل ما يريد** ! .

كانت رواية إدريس الشرايبى عن شاب مغربى عاطل ، كان رافضا كل شيء حوله ، ولكنه لم يكن قادرا على تغيير أى شيء حوله ! ولذلك بصق على الأرض التى ينتمى اليها ، واستقل باخرة متشردة عبرت به البحر إلى فرنسا . وفى فرنسا أراد أن يتعلم لكنه ، بعد فترة ، أدرك أن التعليم ترف لايقدر عليه إلا الأثرياء ، فهجر الجامعة واشتغل عاملا فى مصانع الخمور . ثم انتقل إلى الميناء ، وعمل بعض الوقت فى جمع المحاصيل من الحقول . لكنه ضاق بالعمل ، عندما اكتشف أنهم يستأجرون قوته البدنية الهائلة لقاء مايحفظ له حياته . فآثر التسكع فى شوارع باريس ، يعمل أحيانا فى علب الليل ، وأحيانا يشترك فى سرقة صغيرة ، حتى اهتدى عن طريق الصدفة إلى العمل الذى كان يتوق إليه : تعرف إلى سيدة فرنسية عجوز كانت مرحة وراغبة فى المتعة وثرية فى الوقت نفسه ، وكان هو فحلا وقادرا على إشباعها طوال الوقت . وحققت له الوظيفة الجديدة نوعا من الاستقرار كان يفتقده ، كما ضمنت له كأس خمر معتقة على مائدة عشاء فاخر كل ليلة ، وأيضاً أجرا ثابتا هو أضعاف أضعاف ما كان يتقاضاه عن أعماله السابقة فى المصانع وعلى أرصفة الميناء وفى الحقول ! .

وأحيانا كانت تحدثه نفسه بالثورة على الوضع الذى تردى اليه ، لكنه كان يكتم هذا الصوت المنبعث فى داخله ، فلماذا الثورة وهو على أى حال يؤدى عملا وطنيا ؟! فهذه المرأة الشمطاء هى فرنسا ذاتها ، وهو يمتطى فرنسا كل ليلة ! وعندما تصبح المرأة العجوز فى ذروتها ، وتتأوه بصوتها الرفيع المسلوخ ، تتردد على لسانها كلمات « سيدى » و « عفوك » و « أنا خادمتك » ! عندئذ ينشرح صدره ، ويبتهج فؤاده .. لقد هزم فرنسا وأذلها ، وهو جيش تحرير كامل بمفرده ، وسلاحه هو بدنه ، والنصر معقود له كل ليلة ، والهزيمة كاملة لأعدائه ، والتسليم دون قيد ولا شرط !! .

ولكن المكافح العظيم يمرض فجأة ، يبصق دما ويكتشف أنه مريض بداء السل . ويكتشف أيضا ، وهو يعانى من الألم ، أنه كان يحقق انتصارات فى معارك جانبية ، ولكن السيدة الشمطاء هى التى انتصرت فى الحرب وعندما تكتشف عجزه تلقى به فى الطريق . إن المرأة العجوز لها جسد وليس لها قلب . والمهنة التى اختارها تحتاج الى لياقة ، فاذا فقدها فقد الوظيفة !ويهذى وهو يعانى سكرات الموت على فراش قذر فى مستشفى حكومى فقير : هل الطريق الذى اختاره كان هو الطريق السليم ؟ ويردد وهو يحتضر : المغرب ، المغرب . ولم يفهم أحد من المرضى الفقراء الذين التفوا حوله ، هل كان يتحدث عن المغرب وطنه أم المغرب حياته ؟ على أية حال ، لم يكن المغرب الذى يتردد على لسانه سوى هذه الأرض البعيدة التى رفضها ذات يوم ، وبصق عليها وهو يغادرها إلى الأبد ، ولكنها على كل حال هى الصورة التى بقيت فى خياله لحظة وفاته ! .

هذه لمحة صغيرة سريعة عن رواية (التيوس) ، وقد انتهت بموت تيس ، ولكنها لم تنته من ذاكرتى قط ، وعندما سألت ابن عباس - مرافقى فى رحلتى داخل الجزائر - هل إدريس الشرايبى جزائرى ؟ أجابنى الثائر فى بساطة : إنه من المغرب ، والمغرب من طنجة إلى طبرق .. ليس عندنا مغرب وجزائر وتونس وليبيا ، فكلنا مغرب عربى ، كما أنكم كلكم من المشرق العربى ! .

وعشت أياما عظيمة داخل الجزائر . واكتشفت السر الذى لم تستطع فرنسا بهيلمانها اكتشافه : أن فرنسا تستعمر الجزائر العاصمة والشاطىء كله .. ولكنها لم تستعمر الريف الجزائرى قط ! هنا فى الريف الجزائرى ، الناس لا يزالون عربا أقحاحا ! اللغة عربية والعادات عربية والسلوك عربى . وفرنسا عندهم هى هؤلاء الجنود الذين يعيشون عند الساحل ! .

قضيت ليلة فى منزل رجل عجوز فى قرية تنام فى بطن جبل فى منطقة القبائل . وفى الليل نهض الرجل فذبح لنا شاة وأوقد النار وانهمك فى إنضاج اللحم . وبدا وجهه المغضن على وجه النار كأنه تمثال قديم لرجل من عهد

مضى . وسألنى الرجل وقد كشفت ابتسامته عن فم مهجور : هل أنت من مصر ؟ ولما أجبته بالإيجاب ، قال : زرتها مرة سيرا على الأقدام ! سألته : وكم عمرك الآن ؟ قال : ثمانون أو أكثر .. لاأدرى على وجه التحديد . قلت : لقد سمعت عنك ثناء كثيرا من رجال الثورة ، فما رأيك فى الثورة ؟ سرح بعض الوقت ، وقال : الثورة ؟ .. لقد تأخرت كثيرا ، والسبب أن ثوارنا فى الماضى كانوا يتجهون نحو المدينة ، ولكن المدينة كانت قد فسدت ، أفسدها المستعمرون أنفسهم ، ولو أنهم كانوا اتجهوا الى الريف لقامت الثورة منذ زمن بعيد . ولكنها على العموم اشتعلت الآن ، والسبب أنهم اتجهوا الى الريف ، لأن الريف كان مستعدا دائما للثورة ، ولم يكن ينقصه إلا الإشارة ليبدأ الثورة . ولكنها بدأت الآن ، ولذلك أنت هنا معنا ، ولولاها لما وقعت أعيننا عليك ، لأن الملاعين فصلوا الريف عن المدينة ، وفصلوا الجزائر كلها عن المغرب . ولكن كل ذلك كان فى حكم المستحيل ، لأنك لا تستطيع أن تعبر البحر على بسكليت ! .

وعشت فى جزائر الثورة أربعة عشر يوما أنقل خطواتى فى حذر ؛ ففى كل شبر من الأرض سقط شهيد . ولكن الأيام القليلة التى عشتها مع الثوار كانت كافية لإقناعى بأن عالم الجزائر القديم سينهار حتما على رءوس أصحابه ، وأن عالما جديدا يطل برأسه من تحت الأنقاض ، ويشق طريقا فى بحر من دماء الشهداء ، ويرنو بعينيه نحو المستقبل رغم العواصف الشديدة المحملة بالمشاكل والمآسى والخراب ! .

والحمد لله لأن العمر امتد بالعبد لله حتى قدر لى أن أدخل الجزائر من أبوابها الشرعية . لقد انتصرت الثورة لأنها قامت لتنتصر ، وقامت فى الجزائر حكومة وحكومة وحكومة ثالثة . وفى ظل الحكومة الأولى استولى على حكام الجزائر بعض المتمصرين ، يهود على موارنة . واستطاع هؤلاء أن يفتحوا دكاكين للنضال على الطريقة الثروتسكية المهلبية ، ويامه القمر ع الباب !! وفى أول عيد من أعياد ثورة الجزائر ، تصورت أن العبد لله سيكون من بين المدعوين ،

ولكن الذى حدث أنهم دعوا جميع أهالى حى شبرا وجميع المناضلين فى تنظيم (زمش) ولم يوجهوا الدعوة للعبد لله . أنا ؟! الذى كان أول صحفى مصرى يدخل جزائر الثورة ، ويكتب عنها حلقات يومية نشرت بجريدة الجمهورية فى عام ١٩٥٦ . ثم أصدرت كتابا عن الثورة الجزائرية بعنوان (**أرض اللهب والدم**) ، وكتب مقدمة الكتاب عمنا الكبير **محمد عودة** . ثم كتبت مسرحية عن ثورة الجزائر اسمها (**فيضان النبع**) قدمتها فرقة المسرح الحر ، واضطلع بأدوار البطولة فيها العبقرى الراحل صلاح منصور ، والفنان على الغندور ، والفنان أحمد سعيد .. رحمة الله عليه ، والفنان عمر عفيفى طيب الله ثراه . ياخيبة النظم العربية حين تقع فى أيدى النصابين وبتوع الثلاث ورقات . وللأسف الشديد كان هؤلاء النصابون من مصر . صحيح أنهم ليسوا مصريين ، ولكنهم عاشوا حياتهم كلها فى مصر ، **وناضلوا** فى مصر ، ودخلوا السجون أحيانا فى مصر ! .

وأقسمت أن أزور الجزائر المستقلة ولكن دون دعوة ، وأن أذهب الى تلمسان الجبل . وبالفعل ذهبت الى الجزائر ، وليتنى ماذهبت ! كنت قادما من قلب إفريقيا فى طائرة خاصة تحمل وفدا مصريا عالى المقام ، وحطت الطائرة فى الجزائر ، فاستأذنت وأخذت حقيبتى ونزلت . وعشت فى الجزائر أسبوعا فى حالة اندهاش دائم . كنت أود أن أغنى على كل شبر من الأرض وأبوس التراب . وعندما حان وقت الرحيل ، ذهبت إلى المطار فى صحبة الأستاذ مهابة مستشار مصر الصحفى حينذاك ، ووضعت حقائبى فى الطائرة المتجهة إلى باريس ، وودعت المستشار مهابة ، وصعدت سلم الطائرة لأسمع صوتا ينادينى من الخلف يأمرنى بالعودة مرة أخرى إلى المطار . واكتشفت أننى مطلوب للتفتيش تفتيشا ذاتيا . وفعلوا بملابسى كل مايشتهون : مزقوا ياقة قميصى وبطانة جاكتتى وثنية بنطلونى . كان واضحا أنهم يبحثون عن ورقة أو خطاب . وعندما انتهوا من التفتيش كانت الطائرة قد غادرت المطار إلى باريس . واتصلت بالسفير المصرى فى الجزائر الذى جاء على عجل إلى المطار . ثم جاء

المستشار مهابة أيضا . ثم جاء مدير المطار ، وراح يكرر نفس العبارات (القرعة) التى يجيدها رجال الأجهزة فى شرق البحر المتوسط : فالمسألة كلها غلطة ، وسوء فهم ، وهو يعتذر ، ونحن نقبل الاعتذار . وغادرت الجزائر فى اليوم التالى الى باريس .

وبعد خمسة أيام من وصولى إلى فرنسا ، عرفت السر وراء تفتيشى فى المطار . فبعد خمسة أيام بالضبط من وصولى إلى باريس ، سقط نظام الرئيس **بن بيللا** ، وقام نظام جديد برئاسة الراحل **بومدين** . ويبدو أنه خلال الشهر الأخير من حكم بن بيللا لم يكن هو الذى يحكم الجزائر بالفعل . ويبدو أن الأجهزة التى كانت تأتمر بأمر بومدين قد ارتابت فى العبد لله لحظة نزولى من الطائرة المصرية ؛ فهى طائرة خاصة ، وعلى متنها وفد مصرى على مستوى عال ، ولابد أن كل ركابها من رجال الأجهزة حتى وإن تخفوا فى عباءة الصحافة . ولما كان بن بيللا متهما بأنه عميل لعبد الناصر ، فلا شك إذن فى أننى فى مهمة من أجل بن بيللا ولمصلحة عبد الناصر . ولقد تصوروا أننى جئت أحمل رسالة لبن بيللا ، وأكد هذا الظن لديهم أننى التقيت بعبد الرحمن شريف مدير مكتب بن بيللا ، كما أن مسئولا مصريا من السفارة المصرية كان فى وداعى عند الرحيل .

إلى هذا الحد تمضى الأمور فى العالم العربى ، وإلى هذا الحد تنحدر الأمور أيضا . يالها من ذكريات حزينة وأليمة تركتها زيارتى الأولى للجزائر المستقلة . ولكنها لم تضعف إيمانى لحظة بأن مافعلته مصر من أجل الجزائر كان هو ماينبغى أن تفعله بالضبط . لقد أدت مصر واجبها من أجل تحرير الجزائر . الهدف كان تحرير الجزائر وبعد ذلك كل شىء يهون ! .

ولقد زرت الجزائر بعد ذلك أكثر من مرة ، وكلها تمت من جيبى الخاص أو على نفقة الجرائد التى كنت أمثلها . ولم أقبل دعوة لزيارة الجزائر قط .. ولكى أكون دقيقا وأمينا ، لقد قبلت الدعوة لزيارة الجزائر عندما ذهبت إليها فى المرة الأولى ، ودخلتها مع ثوار الجزائر . ومازلت أحفظ أجمل الذكريات لهؤلاء

الرجال البواسل الذين رافقونى فى رحلتى الأولى إلى أرض الشهداء ، كما كان مسعود وابراهيم حرشى و (سى) إدريس . ترى أين ذهب هؤلاء بعد ذلك ؟ وأين هم الآن ؟ لا أريد أن استشهد بالمثل المعروف عن الثورة ، ومن يشعلها ؟ ومن يستشهد فيها ؟ ومن يجنى ثمارها ؟ المهم أن الجزائر قد تحررت واستقلت وصارت جوهرة ثمينة فى تاج العروبة . ولذلك هتفت من أعماقى وأنا أغادر الجزائر فى آخر زيارة : « يارب الهمة ، الحمد لك ، والشكر لك ، لأنك وفقت جيلنا فى إنجاز هذه المهمة » !.

وأبو زيد قال للباي

عندما دخلت تونس أول مرة ، أدركت السبب الذى من أجله اختارتها قبائل بنى هلال للإقامة فيها خلال التغريبة. فتونس الخضراء هى جنة الشمال الافريقى، وأهلها أكثر العرب لينا وأشدهم عذوبة. والعبد لله دخل تونس ذات صيف حار ملتهب، خلع فيه بورقيبة الباى وجلس على دكة الحكم فى تونس. والحق أقول إن الباى لم يكن فى حاجة إلى من يخلعه؛ فهو مخلوع منذ البداية! وعندما كان جالساً على مقعده، لم يكن فى استطاعته ولا فى سلطته نقل فراش من مكتبه، كان فى استطاعته فقط أن يتجول كما يشاء فى الحديقة، أما خارج سور الحديقة فلم يكن له حول ولا طول ! .

وكان بورقيبة زعيماً تقليدياً خارجاً من صفوف الشعب. كافح وناضل طويلا، وتشرد فى داخل تونس، ثم نفى فى الأرض. وكان من خلفه حزب

شديد التنظيم صارم الانضباط. وكان فى استطاعة بورقيبة من خلال الحزب أن يشعل النار فى تونس بإشارة، وأن يخمد النار إذا أراد بإشارة!ولكن عيب **الحزب الدستورى التونسى** الجديد، أنه كان جديد التشكيل، ولكنه ليس جديد الأفكار. فاكتفى بوحدة المغرب العربى بديلا عن وحدة العالم العربى، وقنع بالاستقلال التام، دون أن يقترب من المشكلة الاجتماعية. ولم تكن للحزب أيدولوجية، ولكن مجرد أفكار هائمة، وخطوط غير واضحة، وكلها مأخوذة ومستمدة من خطب الزعيم وكلماته الخالدة! .

ولقد أتاحت لى الظروف أن أرافق الزعيم خلال شهر كامل زار فيه كل شبر فى تونس، ولم ينس أيضاً زيارة جزيرة (جالطا)، وهى التى نفاه إليها الفرنسيون خلال سنوات الكفاح. وأشهد أن بورقيبة زعيم جماهيرى من طراز فريد، إنه من نفس طينة مصطفى النحاس، مع اختلاف المواقف والظروف. سمعته يخطب فى مدينة الكاف على الحدود الجزائرية. وتطرق الحديث إلى نظرية رأس المال. وقال بورقيبة جاداً: «يقولون إن رأس المال هو نتيجة فائض القيمة، وأنا أقول هذا كذب، فرأس المال هو نتيجة التوفير!»، ولم تضحك الجماهير، ولكنها مزقت أكفها من التصفيق، وبحت حناجرها من الهتاف للزعيم الخالد! ولقد كان من الممكن لبورقيبة أن يمضى فى طريقه وأن يلعب دوراً فى حياة العرب، لو أنه أدرك عمق التغيير الذى طرأ على الأمة العربية بعد الحرب العالمية الأخيرة.. لم يستطع بورقيبة أن يلحظ عمق التغيير الذى أحدثته حرب فلسطين، ولذلك ستجده يعلن عن قبوله لمبدأ إيزنهاور، حتى قبل أن يعلن إيزنهاور تفاصيل مبدئه! وسيهاجم حزب بورقيبة وحدة مصر وسوريا قبل إعلانها، كما أنه جاهر يوماً ما بضرورة عقد الصلح مع إسرائيل. وإن كان إنصافاً للرجل أقول: إن ما دعا إليه بورقيبة، فى الماضى، ربما كان أقل مما وصل اليه الحال الآن!.

ولكن ما الذى شدنا إلى السياسة فى تونس، وكنا نود أن نسير فى موكب البشر، وأن ندخل فى زحام الناس؟ السبب فى الحقيقة هو مؤتمر سياسى

حضرته فى صفاقس، وكان هو مفترق الطرق بالنسبة لمستقبل تونس، وأبرز علامة على الطريق. كان المؤتمر ببساطة يطرح خلافاً فى الرأى بين بورقيبة ومجاهد تونسى آخر هو **صالح بن يوسف**. وكان الأخير يرى أن قبول الاستقلال الذى تعرضه فرنسا على تونس خيانة للجزائر. وكان من رأيه أن يحمل التوانسة السلاح إلى أن تستقل تونس والجزائر معاً. وكان يعتقد أن الظروف مناسبة للدخول فى معركة شرسة وطويلة ضد فرنسا حتى تنهكها تماماً، كما حدث فى الهند الصينية. وكان واثقاً من أن (ديان بيان فو) عربية على الأبواب!.

وكان بورقيبة يرى العكس تماماً. كان يرى أن نصف استقلال خير من استمرار الكفاح من أجل استقلال كامل. وكان من رأيه أن تونس نصف المستقلة قادرة على حماية الثورة الجزائرية ومدها بالمال والسلاح، محتمية بالعلم الوطنى وعضوية الأمم المتحدة! وأطلق بورقيبة عبارته المشهورة: «**فلنضع أقدامنا على أى أرض، ثم نمارس من فوقها سياسة الخطوة خطوة**». ومن هنا فبورقيبة هو راسم السياسة التى تبناها العزيز كيسنجر وطبقها بعد ذلك بثلاثين عاماً فى الشرق الأوسط!.

وانعقد مؤتمر صفاقس فى جو متوتر، ودعيت اليه جميع إطارات الحزب، وتخلف صالح بن يوسف، فقد كان هارباً فى الخارج ناجياً بحياته. وبالطبع صفق الحزب طويلا لبورقيبة، ودعا له بطول العمر! وأشهد الآن أننى خلال المؤتمر كنت فى صف صالح بن يوسف. ولكن التجربة أثبتت أن بورقيبة كان على حق. فمن خلال تونس المستقلة استطاع الحكم أن يحمى ثورة الجزائر، وصارت تونس قاعدة للثورة ومقراً للثوار. المهم أن مؤتمر صفاقس كان هو الفصل الأخير من مرحلة الحوار بين الثوار. وبدأت مرحلة جديدة بعد المؤتمر، هى مرحلة الحوار بالرصاص. وانتهت هذه المرحلة أيضاً بإطلاق رصاصة على رأس صالح بن يوسف، وهو فى غرفته فى أحد الفنادق بألمانيا الغربية! ومات سياسى عربى مخلص، اجتهد فأخطأ، وبدلا من أن يثاب على

خطئه بأجر، أصيب برصاصة فى الظلام قضت عليه!.

صفت المياه للحزب الحر الدستورى التونسى وصار هو الحزب الحاكم فى بلد الخضرة والسلام. ورفع الحزب شعار (وحدة عرب الكسكسى والجلاب). وكانت غلطة لا تغتفر، لأن الحزب قسم العرب إلى أكلة الكسكسى وأكلة الفول، وأكلة الكبة والسمك المسجوف، وأكلة الويكا والشرموت! .

وتركت الحزب الحر الدستورى يحلم بحكم المغرب العربى من طنجة إلى طبرق، ونزلت إلى الشارع أشرب الشاى مع شعب تونس حول أسوار جامع الزيتونة، وأدخن النارجيلة فى حوارى القصبة، واتمشى أفرنجى على شواطىء بوسعيد، وأشرب البوخا فى المقاهى المنتشرة على طول جادة الاستقلال! وبهرنى الشعب التونسى بحيويته وذكائه واحترامه الشديد للفن وحبه الشديد للحياة! تعرفت على بنت تونسية تحاول أن تخطو أولى خطواتها فى عالم الطرب. سألتنى كيف تقابل أم كلثوم وليلى مراد ومحمد عبد الوهاب؟ جلست فى ندوة أدبية، وكان الحديث كله يدور حول أحمد أمين وزكى مبارك وطه حسين والعقاد. تناولت العشاء مرة على طاولة فى ناد للكرة، وكان الحديث كله عن الكابتن الضيظوى والكابتن الديبة والكابتن صالح سليم. دعانى أحد مشايخ جامع الزيتونة إلى منزله وراح ينادينى طوال السهرة بـ(الحاج)، فلما قلت له بأننى لم أتشرف بعد بحمل هذا اللقب، ولم أسعد بعد بزيارة الأرض المقدسة، أجابنى الرجل الطيب: «الأرض المقدسة تبدأ عندنا من حدود مصر».

وعشت فى صفاقس أياماً فى ضيافة الشيخ **أمين حسنين**، وهو مطرب ومقرىء مصرى شهير ذاع صيته فى عشرينات هذا القرن، وهاجر إلى تونس قبل الحرب العالمية الأخيرة. وخلال احتلال ألمانيا لتونس، كان ثعلب الصحراء روميل يتردد عليه فى منزله ليستمع إلى فنه العظيم، وأهداه علبة ذهبية مرصعة بالأحجار الكريمة ليحتفظ فيها بالنشوق. ورأيت هدية روميل مع الشيخ أمين وكان يعتز بها اعتزازاً خاصاً، كما كان فخوراً بصداقة

صاحبها، وقال لى وهو يتنهد أسفاً: كان روميل يحب الإسلام، وكان فى سلوكه يتشبه بالمسلمين الصالحين!! كان الشيخ أمين غارقاً لأذنيه فى حب تونس، وما الفرق بين تونس ومصر؟ أو بين تونس والعراق؟ أو بين تونس والحجاز؟ لا شىء فى واقع الأمر. وأدركت سر بيرم التونسى الذى اقترن أبوه التونسى بامرأة مصرية اسكندرانية، فأنجب أعظم زجال مصرى نطق باللغة العامية المصرية على طول الزمان! هؤلاء التوانسة الأحباء هم أحفاد بنى هلال، حلوا ضيوفاً عليها بعد تغريبة شهيرة خرجوا فيها من الجزيرة العربية، قاطعين الطريق إلى تونس عبر بغداد وسر من رأى والموصل ودمشق وسهل طبرية والقدس والخليل وغزة والقاهرة والاسكندرية وبنى غازى وطرابلس. وعبر الطريق أقاموا وتزوجوا وتناسلوا، وأخذوا نسلهم معهم، خليطاً من أبناء قحطان المنتشرين على الأرض العربية. ولذلك ستجد التواشيح التونسية، خلاصة فن العرب جميعاً. وستجد فى التونسى خصال العربى القديم، رقته وشجاعته ودهاءه وسعيه الذى لا يكل! ويا ميت صلاة النبى على التونسى إذا صادق، وعلى التونسية إذا أحبت! سيعطيك الصديق حياته، وستعطيك الحبيبة كل ما أودع الله من أسرار فى بنت حواء، ومن أخمص القدم الى مفرق الشعر!.

ويا ميت حلاوة على تونس العاصمة كأنها برج بابل. فيها شوارع كفرنسا وحوارى ولا حوارى بولاق الدكرور. وفيها ناطحات سحاب كنيويورك وأكواخ كأكواخ الزنوج. وفيها نسوان ماشية فى الشارع (زلط وملط)، ونسوان تخرج الشارع مختبئة فى خيمة، وكأنهن يعشن فى أيام عمرو ابن كلثوم ! وفى تونس مزارع ولامزارع الدلتا ، وصحراء ولا صحراء العلمين. وفيها مطاعم ولا مطاعم مكسيم، وجوعى ولا جوعى المنطقة التى على حدود بنجلاديش والهند! ولكن أعظم ما فى تونس هو احتفاظها بالطابع العربى الأندلسى فى العمارة وفى الموسيقى وفى المطبخ. وكل تونسى فنان ولو كان يعمل فى كنس الشوارع. وكل تونسية مطربة ولو كانت تغسل الملابس فى البيوت.

والبنت التونسية عينها جامدة وشخصيتها أجمد، وهى عنيفة كالصخرة ورقيقة كغصن البان، ولكن الرجل التونسى (مزاجاتلى) وكل ساعة بحال. هو فى الكرم كحاتم، وفى السهر كنديم فى بلاط هارون الرشيد، وفى الخصومة أشرس من نمر الغاب! وهو الوحيد ربما فى المغرب العربى الذى يحب النكتة المصرية ويفهمها ويضحك على أى نكتة عمال على بطال. والتاجر التونسى هو أشطر تاجر فى المغرب العربى. وهم يجيدون أشغال الفندقة والسياحة وجذب الغرباء. وهم فى المغرب العربى كلبنان فى المشرق العربى، ولكن هناك فرقاً، فالتونسى فيه كل مزايا اللبنانى وليس فيه أى شىء من سلبياته. والسبب أن التونسى لا يعرف الجبال، ولكنه يعيش فى سهول خضراء وفى صحراوات ممدودة.

وميزة تونس أيضاً أن الحزب الحاكم استطاع أن يفرض الأمن فى كل مكان. كما أنها تخلو تماماً من أى مراسم فى دوائر الحكومة. وتستطيع فى أى وقت أن تقابل كاتب الدولة (الوزير) حتى بدون أسباب، يكفى أن تدخل مكتبه وتشرب الشاى وتنصرف فى سلام! وبورقيبة هو الزعيم الوحيد الذى يتحدث مع شعبه مرة كل أسبوع من خلال التليفزيون، حديثاً ليس فى السياسة، ولكنه حديث شخصى كأنه جالس مع أقرب أصدقائه فى البيت. وهو يحكى لهم عن خلافاته الزوجية، وأسباب القطيعة بينه وبين ولده الحبيب، وعن أكلة البيض التى سببت له الإسهال! وأحياناً يصف لهم دواء جربه هو شخصياً وينصحهم باستعماله، باعتبار : اسأل مجرب ولا تسأل طبيب.

والنساء فى تونس لهن حظوة ولهن حضور فى المجتمع، ولهن فى السلطة كلمة ومكان. وكانت السيدة الأولى وسيلة قبل طلاقها هى مصدر جميع السلطات!.

والحق أقول إننى عشقت تونس من أول نظرة، ولكن أحوال السياسة التعبانة حرمتنى من زيارتها منذ ذلك التاريخ، فلم أشاهدها مرة أخرى منذ عام ١٩٥٦. ولكن تونس الخضراء بالرغم من كل هذه السنين لم تذهب صورتها

من مخيلتى. فقد قضيت فيها وقتاً طويلا وطيباً، وقطعتها من شاطىء البحر وإلى عمق الصحراء. وأدركت وأنا اتسكع فى ربوعها، ومن خلال أشجار النخيل والتين والزيتون وبساتين الكروم، كيف نشأ وترعرع أبو القاسم الشابى، أبرز شعراء عصر الرومانسيين العظام. ذلك العصر الذهبى الذى أنجب دستة من فحول الشعراء، أمثال: على محمود طه، وأبو القاسم الشابى، وناجى، وأحمد فتحى، وعبد الرحمن الخميسى، وكامل الشناوى، ومحمود حسن اسماعيل. وبالرغم من جديد صلاح عبد الصبور ونزار قبانى، إلا أنهما يعتبران امتداداً له وبعضاً من بقاياه!!.

وتركت تونس ذات صباح خريفى جميل، وتركت قلبى هناك مع بنت من بنزرت على خدها شامة وعلى (خشمها) وشم. البنت التونسية كانت تقرض الشعر أحياناً، وتضرب على العود أحياناً، وتغنى دائماً حتى وهى تصرخ، وهى تبكى، حتى وهى صامتة وصائمة عن الكلام! وكان العبد لله شاباً فى شرخ الشباب، وللشباب فنون وجنون أيضاً.. ما أحلى أيام الشباب! وودعت تونس إلى لقاء، ولكننا لم نلتق قط، قاتل الله السياسة، فرقت بينى وبين تونس، وفرقت بين تونس وجيرانها، ولم يبق من وحدة الكسكسى والجلاب، إلا أطباق الكسكسى، وقماش الجلباب!!.

الأرض الخراب

ودعت تونس كلها ، ويممت وجهى شطر الحدود الليبية ، وكانت انتقالة قصيرة فى المسافة ، لكنها كانت نقلة رهيبة فى الزمن . فبينما عبرت الحدود فى ساعة، وجدت نفسى أعود القهقرى ثلاثة قرون على الأقل . ولقد دخلت ليبيا بمعجزة ، فقد رفضت جميع سفارات الملك إدريس منحى تأشيرة دخول .. دخت دوخة الدجاجة المنصابة ، وأنا واقف على باب السفارة السنوسية فى القاهرة . ورابطت أياما أمام سفارات ليبيا فى عواصم أخرى كثيرة ، ولكن لا من شاف ولا من درى ، كأن أى مواطن مصرى بالنسبة إلى مملكة السنوسى - رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه يأولى الألباب ! وكان الشلحى الموجود فى القاهرة اليوم يرسم خرائط السد العالى الذى قررت حكومة ليبيا إقامته على الحدود ، ليمنع اتصال القطرين ! وكانت ليبيا - وقتئذ - (حلال للطير من كل جنس ، حرام على بلابله الدوح !). وبالرغم من ذلك توكلت على الله وتوجهت نحو الحدود الليبية ،

وقلت : فليكن مايكون ! وماالذى سوف يكون سوى منعى من الدخول ، أو ضربى علقة عند الحدود ، أو حبسى بضعة أيام فى سجون ليبيا . وأيا كان الأمر ، فستكون هناك قصة تصلح للكتابة وحدوته تحفظ فى متحف الذكريات . ثم إننى فى النهاية سأتمكن من إلقاء نظرة على قطعة من أرض العروبة ، فمن يدرى قد يشاء حظنا التعس أن نعيش ونموت دون أن ندخلها قط!.

ووقفت أمام عسكرى الجوازات الليبى ، وراح يدقق فى جواز سفرى ثم قال مندهشا : ولكنك لا تحمل تأشيرة دخول ؟ ! وقلت للعسكرى برقة متعمدة ، وبأدب مبالغ فيه : إننى فى الحقيقة لا أقصد زيارة ليبيا ، ولكنى مجرد عابر سبيل فى طريقى إلى مصر ، فإذا أردت منحى تأشيرة لمجرد المرور فأنا شاكر فضلك ، وإذا كان هذا مستحيلا ، فسأعود أدراجى من حيث جئت ، وكفى الله المؤمنين القتال ! وقال العسكرى الليبى ووجهه يضىء بالحب : إذا كانت مصر بلادك فهذه أيضا بلادك ، مرحبا بك فى أرض ليبيا وإلى أى مدى تشاء . وختم الرجل الطيب جواز سفرى ، زيارة لمدة شهر . ياسبحان الله ! كل الاحتياطات التى اتخذتها حكومة جلالة الملك وقناصل جلالة الملك ومخابرات جلالة الملك ، أطاح بها هذا العسكرى العربى الطيب فى لحظات ! أى انفصال كامل وكلى بين مايدبر فوق فى العلالى ، فى قصور الحكام ومكاتب المتسلطين ، ومايجرى فى الشارع مع جماهير الناس الطيبين ، التى تدرك بالغريزة أنه مادامت مصر بلادى فليبيا أيضا بلادى ، ومرحبا بك فى بلادك ... وإلى أى مدى تريده .

وكما موسى كليم الله ، جئت ليبيا على قدر ودخلت المدينة أسعى على حذر ، ولكن أين هى المدينة ؟ الشاطىء مهجور إلا من أشجار النخيل ، والشوارع خالية إلا من بعض عساكر الأمريكان ، وحوانيت مفتوحة ولكن بلا حركة فى الداخل ، وعدد من النساء يقطعن الشارع وقد ارتدين خياما متنقلة حتى لاتقع عليهن عين بشر ، وبعض الرجال فى ملابس رومانية من عهد

قيصر . ثم لا شيء بعد ذلك . لاشيء على الاطلاق إلا السكون والصمت ! وقبعت فى صالة فندق المهارى على شاطىء البحر اتطلع إلى الوجوه التى حولى ، وكلها وجوه خواجات عبرت البحر من أوروبا ، بعضهم خبراء وأغلبهم جواسيس وعملاء ووسطاء، والكل مثلى قابع فى مكانه فى هدوء يلفه السكون والصمت ! ولكن ولدا ليبيا يعمل صحفيا لا أذكر أين ، اسمه **الفيتورى** ، ولا أذكر اسمه الأول ، جاءنى رغم كل شيء ، وخرجت معه ذات مساء إلى قاعدة هويلس ، واستطعت أن التقط صورا لمواقع الصواريخ المصوبة نحو مصر . قلبى مع العسكرى المسكين الذى سمح لى بالدخول ، لابد أنهم أذابوه كقطعة الصابون أو نشروه كلوح خشب بلوط - مع الاعتذار لأخينا على بلوط .

وقضيت فى ليبيا أسبوعاً أحاول أن أنفذ إلى داخلها دون جدوى . صحيح أننى دخلت الأرض الليبية ، ولكنى لم أدخل ليبيا . وكيف أستطيع وليبيا نفسها غير موجودة وليس لها حضور ؟! الحضور كله لبطانة **الملك السنوسى** ، وتستطيع أن تراها فى صالة قمار فندق البحر المتوسط . والحضور كله لضباط القاعدة الأمريكية ، وتستطيع أن تراهم فى كل وقت. والحضور كله لرجال الأمن وهم وراءك على الدوام . وفيما عدا ذلك لا حضور لأحد على الإطلاق . الشعب الليبى خلف أسوار السكون والصمت يأكل المبكبكة والبازين ، وضباط الجيش الليبى الوطنيون نصفهم فى لندن بدعوى العلاج أو الدراسة ، والنصف الآخر فى ليبيا تحت الرقابة . ومن الذى يراقب ؟ مخابرات أمريكا وبريطانيا وفرنسا ! فلكل منها ثلث مساحة ليبيا على وجه التقريب!.

ولم أستطع أن اتحدث مع واحد ليبى ، أو أدخل بيتا ليبيا على الإطلاق ! حتى المصريين الذين كانوا فى ليبيا وقتئذ ، كانوا جميعا - وبلا استثناء - هاربين من حكم عبد الناصر ، وكانت الغالبية العظمى من الإخوان المسلمين ، وقلة منهم من رجال العهد الملكى الذى قضت عليه ثورة يوليو ، وقد استطاعوا الإفلات من مصر بثرواتهم وعاشوا فى طرابلس عيشة أقيال الهنود ! حتى المتاجر والمخازن لا ترفع لافتات عربية ، وإنما كل اللافتات مكتوبة باللغات

الأوروبية، وخيل إلى أننى أسير فى شارع من شوارع روما أو لندن أو باريس . وثروات الشعب العربى فى ليبيا تنهب بلا حساب ، ودود أوروبا الخبير يمص دم الشعب بلا رحمة ، وتحول الشعب فى النهاية إلى جثة هامدة بلا حراك ، كل (سلوته) فى الحياة احتساء أكواب الشاى فى النهار ، وتسكين الدماغ فى الليل بأنفاس الحشيش المعطرة أو أكواب البيرة المثلجة ، والاستغراق فى أحلام سعيدة عن النفط الذى بدأت روائحه تملأ الخياشيم فى أنحاء البلاد .

وكما حدث فى أمريكا عند ظهور الذهب ، تدفق الآلاف من الليبيين إلى المدينة ، وقد هجروا القرى والحقول وتركوا قطعان الماشية تسرح بلا رعاة فى البرارى ، وجاء الجميع تسبقهم صرخة مدوية : النفط . ومطلبهم الوحيد : الوظيفة . وبدلا من أن تزجرهم الحكومة ، فعلت العكس ، وشجعت المهاجرين على الإقامة فى المدينة ، وألحقتهم جميعا بمهن غير منتجة ، فراشين فى دواوين الحكومة . وفى بعض المدارس فى طرابلس بلغ عدد المدرسين خمسة عشر مدرسا ، وعدد التلاميذ مائة طالب ، وعدد الفراشين مائة وخمسين فراشا . وحتى هذا العدد الهائل لم يكن يؤدى عملا ما فى المدرسة ، ولكنهم كانوا يكتفون بالجلوس فى حلقات فى فناء المدرسة يشربون الشاى أحيانا وينامون أغلب الأحيان ، وفكر عدد منهم فى زيادة دخله فسجل نفسه فراشا فى أكثر من مدرسة وفى عدد آخر من الدواوين .

وبدأت ليبيا بعد ذلك التاريخ تستورد أكلها من الخارج ، حتى الفجل ! ولكن .. لاشيء يهم مادام الملك **أدريس** مهتما بمزرعة الخيول الملكية ، والأمير **الرضا** يتأمل النجوم من شرفة قصره المطلة على البحر المتوسط ، ووزير الداخلية **صوفى** - الذى كان يعمل محصلا فى ترام الرمل فى الإسكندرية - يسيطر على الأمن فى الشارع، ويعد أنفاس الناس فى البيوت ، ويحرس منشآت البترول من أن يقترب منها شبح كلب شارد ! ولقد كانت المؤامرة كبيرة ورهيبة ، ولم يكن فى ليبيا كلها من يستطيع منعها . وكانت الخطة جهنمية وهى : إفراغ الأرض الليبية من فلاحيها وإلحاقهم بوظائف فراشين فى

الحكومة حتى لايكون هناك أدنى ارتباط بين الليبى وأرضه ، وحتى يسهل بعد ذاك اقتلاعه من الأرض الليبية كلها . وكان الملك السنوسى مشغولا بخيوله ، والأمير الرضا يكتفى بالتأمل ولسان حاله : رضا لمن يرضى ! والحكومة متواطئة مع الأجنبى ، وأعضاء الحكومة ليس لهم فى ليبيا شىء يخافون عليه ، وكل مايملكونه فى ليبيا أودعوه خزائن خارج الحدود .. المهم أن تستمر الأحوال على هذا النمط أطول وقت ممكن ، والمهم أن يستنزفوا من دم الشعب أكبر كمية ممكنة !.

ولذلك لم يلحظ أحد شيئا مريبا ، وطائرات فرنسا وانجلترا تحتشد فى قاعدة العظم على حدود مصر ! ولم يستنكر أحد من السادة فى ليبيا ما حدث بعد ذلك عندما قامت هذه الطائرات بضرب القاهرة أيام العدوان الثلاثى ! بل احتفل بعض الوزراء وبعض الحكام فى ليبيا بانتصار الحلفاء على (العدو المصرى). غير أن شعب ليبيا العربى كان له موقف مختلف : هبت الجماهير فى حماسة أصيلة تحرق كل شىء يملكه الأجانب فى بنى غازى وطرابلس، وحاصر الناس أحياء اليهود فى المدينتين، وهاجموا القواعد العسكرية والسفارات الأجنبية وأشعلوا النار فى العلم البريطانى والعلم الفرنسى ، وقتلوا عددا من جنود الإحتلال كانوا يتنزهون على الشاطىء فى اللحظة ذاتها التى سكتت فيها إذاعة القاهرة! وهبت الحكومة هى الأخرى فاتخذت اجراءات مضادة : ألقت القبض على الكثيرين ، وعوضت الأجانب عن ممتلكاتهم التى احترقت ، واعتذرت عن أرواح ضحايا جنود الاحتلال التى أزهقت . وزيادة فى احتياطات الأمن ، منعت الحكومة إذاعة نشيد (الله أكبر) - وهو النشيد ذاته الذى سيكون نشيد ليبيا الوطنى فى مستقبل الأيام . وزيادة فى الأمن والأمان ، استوردت حكومة السنوسى عمالا من ايطاليا ومن مالطة ومن البرتغال ومن تشاد ، ولكنها منعت مرور عمال مصر عبر الحدود ، وقامت بترحيل من كان موجودا منهم فى ليبيا .

وخلال السنوات الست التى تلت العدوان الثلاثى ، تحولت الأراضى

المزروعة إلى أراض بور ، وأصبح الجبل الأخضر جبلا من التراب والصخور ، ونفقت قطعان الماشية ، التى كانت ترعى وحدها فى الخلاء. وحدثت معجزة لا أظنها حدثت قبل ذلك فى أى مكان: ليبيا التى كانت تصدر الضأن إلى الخارج ، أصبحت ولأول مرة تستورد اللحوم من تركيا ومن ايطاليا والصومال. وتحولت ليبيا بفضل الحكم الأحمق إلى ثلاث دول : دولة فزان وتحكمها فرنسا ، ودولة بنى غازى وتحكمها انجلترا، ودولة طرابلس وهى تحت الحكم الأمريكى . وخيل للمراقبين فى كل أنحاء العالم أن ليبيا قد ماتت، وأن الشعب الليبى فى غفوة مثل غفوة أبناء الرقيم . وأطلق الجنرال **لاكوست** - الذى كان يحكم الجزائر - نكتة شهيرة عن ليبيا عندما سأله صحافى فرنسى عن مدى خطر الثورة العربية الآتية من الشرق على الوضع فى الجزائر .. ضحك لاكوست السمين وقال : « بيننا وبين الشرق العربى أرض ميتة ، وهى موصل غير جيد للحرارة ، وهى كفيلة بقتل كل شىء يعبرها أو يقيم عليها : الأشخاص والمبادىء والأفكار ، ونحن نعيش هنا خلف ساتر يحمينا ويوفر لنا الأمان!». وكانت ليبيا هى الأرض الميتة التى عناها الجنرال لاكوست ، وهى عبارة فيها الكثير من الواقع والكثير من سوء الفهم . فقد كان لاكوست ينظر هكذا إلى الحكومة وإلى السلطة ، لكن نظره الضعيف لم يستطع أن ينفذ إلى الأعماق . وتحولت ليبيا إلى أضحوكة فى نظر الجميع، لدرجة أن أحد الصحفيين العرب عندما قرأ « انقلاب عسكرى فى ليبيا » ، ظن أن عسكريا ليبيا قد انقلب على الأرض أثناء سيره فى الطريق .

ولكن رغم الماء الآسن والظلام المخيم والموت الذى يرفرف على رءوس الجميع ، ذهبت إلى سوق طرابلس واشتريت بعض الأغراض من تاجر ليبى ظل نائما على جنبه وأنا أفتش فى المحل عما أريد . وعندما حاولت أن أنقده الثمن، اكتشف الرجل أننى مصرى وأننى زائر فى طريقى إلى وطن **أبو خالد** ، وأقسم الرجل ألف مرة أنه لن يتقاضى أى ثمن . وأكثر من هذا، أقسم ألف مرة أن أشرب معه الشاى قبل أن أغادر المحل . وقبلت شاكرا اعتقادا منى أن الشاى

فى طرابلس مثل الشاى فى أى مكان على ظهر الأرض . وكانت الساعة الخامسة بعد الظهر عندما بدأنا حفلة الشاى . وعندما خرجت من المحل كانت الساعة قد بلغت العاشرة ، وكان الأخوة الليبيون لم ينتهوا من شرب الشاى بعد . فأنت تبدأ بالشاى الأسود ، ثم الشاى الأحمر ، ثم الشاى الباهت ، ثم تعود إلى الشاى الكحلى، ثم الشاى الأزرق ، ثم الشاى الوردى ، ثم الشاى الأحمر ، وهكذا تتذوق كل الألوان . ومع كل لون حكايات تروى وأحاديث تقال ، ولكن لا أحد يسمع لأن الجميع مشغول بشرب الشاى .

ولقد تركت ليبيا ذات يوم من ١٩٥٧ وأنا واثق أننى لن أعود . لقد كان كل شىء يوحى بأن ليبيا قد ضاعت إلى الأبد . وإذا كانت الجزائر قد ضاعت بفعل فرنسا وفلسطين ضاعت بعدوان إسرائيل، فليبيا ضاعت بسبب خيانة بعض حكامها . ولكن لأن الليالى دائما حبلى ، ولأنها أيضا تلد كل عجيب ، حدث عكس ماتوقعه الجميع . وذات صباح من عام ١٩٦٩ وقعت الواقعة فى ليبيا . ولم يكن بيان السلطة الجديدة بيانا للثورة بقدر ما كان تأشيرة دخول للعبد لله للعودة إلى ليبيا . وكان مجىء **الثورة** هو هدية الأقدار للأمة التى انتكست فى حرب ١٩٦٧ ، وكان علامة على أن هذه الأمة قد تنام أحيانا ولكنها لاتموت ، وأنها قد تمرض أحيانا ولكنها قادرة دائما على المقاومة ، وأنها أقوى من الشلل ومن العجز .

وإذا كانت رحلتى الأولى إلى ليبيا تمت فى ظل الملكية ، فإن رحلاتى إلى ليبيا بعد ذلك تمت فى ظل الثورة. والغريب أننا نحن العرب نصنع نفس الأشياء فى ظل جميع الأنظمة المختلفة ، ولذلك يخيل للعبد لله أحيانا أننا نحن العرب لا نعرف إلا نظاما واحدا للحكم ، ولكننا نطلق عليه عدة أسماء . نظامنا العربى من واقع التجربة المرة هو نظام (كبير العائلة) الجالس على الدكة، فى يده اليمنى سيف وفى يده اليسرى كيس منتفخ بما فيه من ذهب وفضة . ونحن نطلق على هذا الكبير الجالس على الدكة أحيانا لقب **ملك**، وأحيانا لقب **شيخ**، وأحيانا لقب **رئيس**. ولكن الألقاب فى بلادنا ليس لها مدلول وليست ذات مغزى ،

فجوهر الحكم واحد فى ظل جميع الأنظمة وتحت جميع المسميات فى عالمنا العربى . هى قبائل سياسية، الأمر والنهى فى يد شيخ القبيلة ، وليس لأفراد القبيلة إلا السمع والطاعة وكتابة التقارير اليومية . والخلاف بين أحزابنا ليس خلافا فكريا ولكنه ثأر ، ولايضيع ثأر وراءه مطالب . ولذلك أيضا طبقنا الشيوعية بأسلوب عربى ففشلت، وطبقنا الاشتراكية بأسلوب عربى ففشلت ، وحاولنا تعريب الرأسمالية ففشلت. والسبب هو نظامنا العربى الذى نطبقه فى كل مكان من بلاد العرب ، والذى يجب ماقبله ويلغى مابعده !.

ولقد ذهبت إلى ليبيا الثورة أكثر من مرة . وفى أول مرة تعرفت على الثوار وصدمت! مجموعة شباب ثوار أكثر سذاجة من عمى الشيخ عطوة مجذوب بلدنا وأكثر طيبة من خالتى ، لديهم أحلام وليس لديهم برامج ، وعندهم نية وليس عندهم قوة . وفى المرة الثانية تضاعفت الصدمة عندما اكتشفت أن الثورة عندهم تعنى الفوضى . وفى المرة الثالثة قررت أن أغادر ليبيا وألا أعود إليها. ولكن بين الزيارة الأولى والزيارة الأخيرة وقعت مصائب وحدثت أهوال وجرت أحداث ، ولذلك سنرجىء الحديث عنها ؛ لنروى لكم الوقائع بالتفصيل ومع التحليل .

والكفاح دوّار!

ولقد قدر للعبد لله أن يعود إلى ليبيا بعد الثورة، وكانت المرة الأولى خلال زيارة عبد الناصر لها. وكانت الثورة لا تزال بكراً، وأفق الثوار لا يزال محدوداً. كانوا ثواراً لا يزالون، لم يتحولوا بعد إلى رجال حكم.

وأذكر أننى كتبت بالتفصيل عن زيارتى الأولى للقذافى، وهو نزيل مستشفى طرابلس العمومى لإجراء عملية الزائدة الدودية. ولم أكن وحدى حين ذهبت إليه، ولكنى ذهبت مع الزميل الكبير الأستاذ أحمد بهاء الدين.

واكتفينا فى البداية بتسجيل أسمائنا فى سجل التشريفات، وعندما استدرنا عائدين، وقبل أن نصل إلى باب الخروج، اكتشفنا أن هناك من يجرى خلفنا، ينادى علينا بأعلى صوت، يرجونا أن نعود للقاء **العقيد القذافى**. لم يكن الذى يجرى خلفنا أى أحد، ولكنه كان **بشير هوادى** عضو مجلس قيادة الثورة ومعه عضو مجلس ثورة آخر هو **محمد المقريف**. وعدنا، الأستاذ أحمد بهاء الدين

وأنا، ودخلنا حجرة القذافى، ولم أصدق أنها حجرة الرجل الذى قلب الأوضاع فى ليبيا، وطرد الملك السنوسى منها، وجلس مكانه فوق القمة العالية. لم يكن فى الحجرة شىء إلا سرير عادى من سراير المستشفيات، وبجانب السرير منضدة صغيرة مدهونة بطلاء أبيض، وعلى المنضدة إناء زجاجى به ماء، وكوب صغير به عدة ورود، وجهاز راديو صغير، ثم لا شىء بعد ذلك. وكان القذافى نفسه يتمدد على السرير، مرتدياً بيجامة عادية مقلمة، وقدماه عاريتان. وعندما أبصرنا قهقه عالياً، ورفع يديه كأنما يهم باحتضان الهواء.

وجلسنا معه وفى نيتنا أن نقضى خمس دقائق معه، ولكنه كان يصر على الجلوس كلما استأذنا بالانصراف. وامتدت جلستنا معه إلى ساعة ونصف الساعة، خلالها ناقش أحمد بهاء الدين فى مقال كان قد نشره على صفحات (المصور)، ثم التفت نحوى وقال: لا تغادر ليبيا قبل أن أغادر المستشفى، فلى معك حديث طويل، فلما استفسرت من العقيد عن موعد خروجه، أجاب: بعد أسبوعين. فلما اعتذرت له عن عدم إمكانى البقاء فى ليبيا كل هذا الوقت، قال ضاحكاً: إذن سأصدر أمراً باعتقالك فى ليبيا. ثم قال العقيد وهو يضحك: لقد قرأت لك كتابك الأخير (**الشيخ لعبوط يتلعبط**) وكنت أحياناً أضحك وأنا جالس وحدى، واضطررت إلى ترك الكتاب، حتى لا يرانى أحد وأنا فى هذه الحالة فيتهمنى بالجنون. ثم قال: سأعطيك مفكرة الملك السنوسى، وستجد فيها ما هو أعجب وأغرب من يوميات الشيخ لعبوط. ثم قال لبشير هوادى: اذهب مع محمود إلى دار الحكومة واعطه مفكرة الملك السنوسى. وعندما أبدى بشير هوادى بعض الفتور، قال له العقيد بلهجة آمرة: اذهب معه الآن واعطه المفكرة.

كان هذا أول لقاء لى مع العقيد، وغادرت ليبيا مع الأستاذ بهاء قبل أن يغادر المستشفى. كان ذلك فى عام ١٩٦٩، ولم تقدر لى العودة الى ليبيا مرة أخرى إلا فى عام ١٩٧٥، وفى شهر أبريل بالذات، أى بعد ست سنوات من ذلك اللقاء الخاطف فى حجرته بمستشفى طرابلس العام. ولقد كانت فى ذهنى

صورة رسمتها لليبيا الثورة، تصورت أن كل ليبى تحول إلى ثائر، وأن الصحراء تحولت إلى جنات خضراء، وأن طرابلس أصبحت قطعة من أوروبا، وأن ليبيا بالثورة دخلت القرن العشرين من أوسع الأبواب. ولذلك كانت صدمتى شديدة عندما اكتشفت أن كل شىء بقى على ما هو عليه، الشىء الجديد الذى طرأ على الحياة هناك هو مجموعة شعارات، وعدة ميكروفونات، وصراع السلطة بين الثوار على أشده. بشير هوادى مبعد عن السلطة، ومحمد المقريف مات فى حادث مريب. صحيح أن هناك أشياء كثيرة تغيرت، منها أن الثوار تحولوا إلى حكام. فى الزيارة الأولى مثلا، كان على الصحفى الذى يزور ليبيا أن يسدد فاتورة فندقه، لأن الثوار لا يرشون أحداً، ولا يطمعون فى استمالة أحد. ولذلك سدد حسابى فى الفندق صديقى أحمد الفتحلى، وسدد فاتورة الأستاذ أحمد بهاء الدين صديقه الأستاذ الغتورى. ولم يكن الحساب إلا عدة دنانير قليلة، فقد عشنا فى تقشف شديد يليق بنبض الثورة ونهجها. ولكنهم فى الزيارة الثانية استضافونى فى **فندق الشاطىء**. وهو فندق يقع على مساحة كيلو متر مربع، ولذلك فهو أشبه بالمطار منه إلى الفندق، واكتشفت أنه مضيفة لجميع المناضلين من كل أنحاء الأرض.

ولما كان المناضلون أشكالا على ألوان، فقد اكتشفت أن بالفندق عدداً من المناضلين نزلوا بالفندق عند افتتاحه منذ عامين، ولم يغادروه بعد! وكان هؤلاء ينامون نهارهم بالفندق، ويسهرون الليل فيه، ولما كانت الخمور ممنوعة ، فقد اكتفوا بعصير الليمون، وهو عصير مستورد من إيطاليا، كان له طعم الليمون، وليس له خصائصه، شىء أشبه بالنضال الذى يقوم به هؤلاء السادة المناضلون. وكان البعض منهم حسن النية، والبعض الآخر قليل الحيلة، والبعض الآخر أرزقى معتاد على الاسترزاق، وجد ضالته فى فندق الشاطىء، وأقام على أمل أن تحقق له الأيام جزءاً مما يريد. الشىء الوحيد الذى كان يربط بين الجميع هو الأحلام: بعضهم يحلم بأمة عربية واحدة من الخليج إلى المحيط، وبعضهم كان أكثر تفاؤلا، وهؤلاء كانوا يحلمون بوحدة من المحيط الى المحيط، من المحيط الأطلنطى إلى المحيط الهندى، والبعض الآخر كانت أحلامه تمتد إلى أبعد من

هذا، فيحلم باسترداد الأندلس والأسكندرونا، وبخارى، وسمرقند، ولم لا؟ والثورة فى ليبيا قائمة والكفاح دوار! وسهرت ليلة واحدة مع المناضلين فى فندق الشاطىء، ولم أعد إليهم بعد ذلك قط.

واجتمعت بالعقيد ذات ليلة عاصفة ومطيرة فى مكتبه بالقيادة العامة، العقيد وأنا وليس معنا ثالث، وعندما سألنى عن أحوالى فى فندق الشاطىء قلت له ضاحكاً: الفندق عظيم، ولكن المناضلين فيه أكثر من اللازم. وضحك العقيد وهو يقول: والله يا محمود عندنا مناضلون أكثر من حاجة الأمة العربية. وبالرغم من أن الجلسة استمرت ساعات طويلة، وتشعب الحديث فيها، وذهب إلى اتجاهات شتى، إلا أن العقيد طلب خلال اللقاء عدة طلبات محددة:

- أن أصدر جريدة فى بيروت، فاعتذرت له بأن ذلك مستحيل لأننى سأقتل فى اليوم التالى لصدورها. وقال العقيد: ولكنى سأحميك فى بيروت. وقلت للعقيد: أنا واثق أنك تستطيع حمايتى فى بيروت، ولكن المأساة أن الخطر لن يكون من جانب الرأسمالية العالمية، أو الامبريالية الاستعمارية، أو الشواشى العليا للبرجوازية.. إلى آخر هذا الكلام الذى لا يضر ولا يفيد. الخطر الحقيقى يا سيادة العقيد سيكون مصدره أصحاب الصحف اللبنانية. فالجرائد التى من هذا النوع لها أصحابها، وسوق الصحف الخاضعة لنفوذ الأنظمة العربية لها زعماء وآباء روحانيون، وهم مستعدون لصنع كل شىء وأى شىء لمنع الغرباء والمتطفلين.

- أن أعيش فى طرابلس، وأكتب فى جريدة ليبيا اليومية، وهى جريدة الفجر الجديد. ومصيبة العبد لله أن النكتة تحبك معى أحياناً، وقد حبكت معى فى تلك اللحظة فقلت له: اكتب فين فى **الفقر** الجديد؟ ويبدو أن النكتة لم تعجب العقيد فغاب عنى فترة، وغاب بعيداً عن الحجرة التى كنا نجلس فيها، وتبدلت ملامح وجهه وبدا عليه أنه يكظم غيظاً شديداً فى داخله.

- أن أصدر كتاباً عن السادات، وعن حقيقة ما دار قبل وحول وأثناء يوم ١٥

مايو الشهير. وأفهمت العقيد أن الوقت لم يحن بعد لكشف أسرار هذا اليوم العجيب، وأننى سأكتب هذا الكتاب عندما تأتى الفرصة ويحين الوقت المناسب.

وعندما انتهت المقابلة فى الفجر ودعنى العقيد عند الباب الخارجى، وقال: هذه بلادك تستطيع أن تقيم فيها كما تشاء، وتستطيع أن تغادرها كما تشاء، وسأراك مرة ثانية عما قريب. ولكن مقابلتى له لم ترقه بالتأكيد. كنت صريحاً أكثر من اللازم وجلياطاً فى بعض الأحيان، وشعوت بفتور من جانب المسئولين الصغار الذين كانوا يبدون للعبدلله عواطف مبالغ فيها فى أول أيام الزيارة. وزاد الفتور عندما دعونى إلى ندوة فى الإذاعة، وحضرت الندوة بالفعل، ولكنى اعتذرت عن الكلام. ولأنه رب ضارة نافعة، فقد كان فتور هؤلاء المسئولين الصغار سبباً فى الإقلال من الزيارات التى كانوا يقومون بها للعبد لله، ووفر هذا الفتور وقتاً للعبد لله لكى يسرح فى الشارع الليبى.

كان دليلى إلى الشارع الليبى، محامى فى الأربعين من العمر، وهو خريج كلية الحقوق المصرية، وكان يتصور أن المحاماة هى أرقى مهنة فى الوجود، وأن المحامى هو رسول الله على الأرض. وكان يعيش على أمل واحد، هو أن يعيش حتى يرى اليوم الذى يتحرر فيه الشعب الليبى من حكم السنوسى؛ ليتولى الشعب حكم نفسه، وليعيد صياغة الحياة على أرض ليبيا وعلى النحو المطلوب. وكارثة المحامى الشاب أنه عاش حتى رأى ذلك اليوم، وعاش حتى جاء (سنوسى) آخر أصغر سناً، ويرتدى زياً مختلفاً، ويقود ليبيا فى مهمة ليست مؤهلة لها، ولم يرشحها أحد للقيام بها! ومأساة المحامى الشاب أنه عاش حتى رأى المحاماة مهنة غير مرغوب فيها، وحتى رأى المحامى مجرد صعلوك فضولى طفيلى لا يريده أحد.

ودخلت مع المحامى الشاب عدداً من البيوت الليبية، من مختلف الصنايع والطبقات. قضينا ليلة فى بيت محامى أكبر سناً، وقضينا ليلة أخرى فى بيت فلاح، وقضينا ليلة ثالثة فى بيت صحفى مفصول من الخدمة وممنوع عليه

العمل فى مهنة الصحافة، وقضينا ليلة حافلة فى بيت تاجر يبيع الملبوسات المستوردة من إيطاليا. وعلى اختلاف الصنايع والرتب كان الجميع يتكلمون لغة واحدة، ويشعرون بنفس المرارة، ولهم أمنية واحدة وهى: أن يغادروا ليبيا اليوم قبل الغد، وأن يذهبوا إلى أى مكان.. لا شىء يهم. وأدركت من خلال الدردشة مع الجميع، أن أحداً فى ليبيا لا يستطيع أن يتنبأ - حتى ولو كان عرافاً - ما الذى سوف يأتى به اليوم، ولا ما الذى يخبئه الغد؟ ولكن الحياة تمضى بهم دقيقة بدقيقة، وثانية بثانية.

وجهاز التليفزيون هو الذى يصدر القوانين، وهو الذى يسن الضرائب، وهو الذى يذيع أخبار الإعدامات التى تمت بالأمس! ويفاجأ المواطن الليبى وهو جالس أمام التليفزيون، بأن أحد أقربائه أو أحد أصدقائه أو أحد معارفه قُتِل. ليه؟ وما هى التهمة؟ وأين جرت المحاكمة؟ ومن هو القاضى؟ ومن هم الشهود؟ وما هى الأدلة؟ كل هذا لا أحد يعرفه، وما جدوى أن يعرفه أحد؟ يكفى أن الإعدام قد تم تنفيذه، ومن فضل الله أن التليفزيون يذيع الخبر على الناس!.

وعندما أمعنت النظر فى التجربة الليبية أدركت أن التبسيط هو مأساتها. فالزعيم عبد الناصر كان زعيماً للعرب لأنه حاول توحيدهم، إذن.. فليحاول الزعيم الآخر توحيد العرب أيضاً. وما دام يحاول، سيصبح حتماً زعيمها. والزعيم عبد الناصر كان زعيماً وطنياً لأنه حارب الاستعمار، إذن.. فليحاول الزعيم الآخر محاربة الاستعمار، وما دام يحارب - ولو حتى فى الإذاعة - فقد صار زعيماً وطنياً! وإذا كان فى العالم نظريتان، الشيوعية والرأسمالية، فلماذا لا يكون هناك نظرية ثالثة؟ ويكفى أن تُكتب النظرية، وأن تُطبع فى كتب ملونة، وتُردد فصولها فى الإذاعة، ليصبح صاحبها هو زعيم القوة الثالثة! وهى عملية عبيطة أشبه بأن يقوم الممثل عادل إمام بأدوار يوسف بك وهبى، أو يتدرب فاروق جعفر ليأخذ مكان مارادونا، أو ينهمك الفيلسوف زكى نجيب محمود فى التدريب لينازل البطل محمد على كلاى! فالزعيم عبد الناصر صار

عبد الناصر لأنه كان فى مصر، ومصر لها دور تلعبه منذ قديم الأزل، وستظل تلعبه إلى أن يشاء الله. والعبد لله مثلاً يمكنه أن يصبح بطل العالم فى يوم من الأيام.. ولكن فى لعب الكوتشينة! أما فى المصارعة والملاكمة وشد الحبل، فالمحاولة لن تكون أكثر من عملية جنون، ولن تؤدى فى النهاية إلا لمستشفى الصدر، وعلى أحسن الفروض، مستشفى الخانكة!.

وبعد عدة مشاوير فى الشارع الليبى أدركت عمق المأساة وفداحتها.. كانت الشوارع خالية تقريباً، وفى بعض الأماكن كان هناك زحام. فإذا اقتربت من الزحام اكتشفت أنهم جميعاً وافدون من مصر، جاءوا إلى ليبيا سعياً وراء الرزق. وعجبت لهذه المحاولات المستمرة لحشد الجماهير. فأين الجماهير التى تريد هذه الأجهزة أن تحشدها؟! الجماهير الليبية؟! إذا كان المقصود هؤلاء، فملعب كورة واحد يكفى لحشدهم! هل هى الجماهير المصرية الموجودة فى ليبيا التى يريدون حشدها؟ الحقيقة أن هناك خطأ فى التحليل بالنسبة لهذه الجماهير، ليس فى ليبيا وحدها، ولكن فى أماكن أخرى كثيرة. فهذه الجماهير التى تركت مصر إلى بقاع شتى فى الأمة العربية، هدفها الأول هو البحث عن عمل، والسعى وراء الرزق، ومحاولة تحسين الأحوال. ولكن بعض فلاسفة النظم العربية إياها يتصورون أن هذا الكم الهائل من الجماهير، لم يخرج فقط من أجل الرزق، ولكن فى أعماقه ثورة مكبوتة ضد الأوضاع فى مصر، فهم ثوار دون إدراك، وهم مناضلون دون وعى. وكان نتيجة هذا التحليل الخطأ، فضائح ومصائب وأخطاء سياسية فادحة.. ومع ذلك لا يتعلمون! .

وكان أعظم مثال على خطأ التحليل من جانب النظم إياها هو **حزب الكهرباء**. وكان بطل حزب الكهرباء المصرى هو رجل اشتغل خادماً فى مكتب عبد الناصر. وكانت مهمته فى المكتب هى تقديم الشاى والقهوة، وفتح الباب للضيوف والزوار. وفى زمن السادات هاجر الرجل من مصر وتسكع فى بلاد كثيرة فى العالم العربى، وأخيراً اصطاده نظام عربى من إياهم، فصار

الرجل زعيماً لحزب مصرى فى المنفى، يرفع شعارات ثورية وتقدمية، ويشجب كل المخططات الاستعمارية والمؤامرات الإمبريالية، ويدعو إلى قيام الثورة العربية.. وبقيادة حزب الكهرباء! ولكن ما هو سر تسمية الحزب بحزب الكهرباء؟ السبب أنهم بحثوا عن وسيلة لتمويل الحزب، دون أن يتورط النظام الذى يرعاه مباشرة فى هذا التمويل. وهداهم التفكير إلى إنشاء شركة كهرباء لتمويل هذا الحزب الحديدى، والذى كانت لجنته المركزية تتألف بالإضافة إلى الخادم إياه، من مهندس أرزقى، ومحام أرزقى، وشاب يشتغل بالسياسة باعتبارها أسهل طريق للرزق. وعندما وقع حادث المنصة يوم ٦ أكتوبر عام ١٩٨١، أعلن رئيس حزب الكهرباء مسئوليته عن الحادث، وتفرغ عدة أيام بعد ذلك للإدلاء بأحاديث ثورية، عن رأيه فى كل المشاكل، من أول مشكلة البحر الكاريبى، وإلى مشكلة فيتناو!! حتى شركة الكهرباء التى أنشأت خصيصاً لتمويل الحزب الحديدى اكتشفوا أنها سجلت فى جزر الباهامز، وباسم زعيم الحزب وزوجته والمهندس الأرزقى وحرمه!.

ليبيا المسكينة هى الأخرى وقعت فى هذا المطب، وأنشأت عدة أحزاب مصرية ثورية وعلى غرار حزب الكهرباء، كان أشهرها حزب تحرير مصر، ومن المضحك حقاً أن أعضاء هذا الحزب يحررون الآن بعض الصحف داخل مصر وخارجها.

المهم عشت فى ليبيا أياماً أتناول المبكبكة والبازين مع أفراد الشعب الليبى، وأغادر الشارع مسرعاً مع حلول المساء؛ فهكذا يتصرف الشعب الليبى، وكأن حظر التجول مفروض عليه. ومنذ حلول المساء لن تجد ليبيا فى الشارع، ومن يقبض عليه فى الليل ولو كان فى طريقه إلى الطبيب، فسينام فى السجن مدة قد تصل إلى أسبوعين، هذا إذا كان الليبى وديعاً وليس من هواة المشاكل. أما إذا اشتبك مع الشرطة فى عراك، أو سب أحدهم، أو تهور فركل أحدهم، فالنتيجة الحتمية هى إذاعة اسمه ضمن قائمة الإعدامات فى التليفزيون.

وفى تلك الأيام التى عشتها فى ليبيا، والتى امتدت ثلاثة أسابيع بالتمام

والكمال، اكتشفت أيضاً أن السلطة التى تحكم ليبيا ليست واحدة، ولكنها عدة سلطات. فبينما أبدى بعض المسئولين الصغار فتورهم نحوى بعد لقائى بالعقيد، أقبل على العبد لله مسئولون آخرون صغار أيضاً، ولكنهم يعملون فى أجهزة منافسة. فهناك فى ليبيا أكثر من دولة، وأكثر من حكومة، وأكثر من مسئول. وقد تلقى حتفك ليس لأنك معارض، ولكن لأنك تعمل مع مسئول منافس يدبرون لخلعه أو تحجيمه. وكم من مسئول ليبى كان فى القمة، ثم هوى فجأة إلى القاع، وكم من مسئول كان فى القاع، ثم طفا فجأة على السطح. صراع السلطة على أشده بين الجميع ولن يتوقف قط، لأنه الأساس الذى تقوم عليه قيادة العقيد، كما أنه الضمان الوحيد لبقاء العقيد فوق القمة.

مأساة نعم، ولكنها مأساة متشابهة ومتكررة فى أنحاء الوطن العربى، ضحيتها الوحيدة هو المواطن العربى. وتخسر الأمة بعض أجزائها، وتفقد خطاها على الطريق، بسبب ممارسات مجنونة، ولكن كل شىء يهون طالما أن النظام موجود ومستمر. والإذاعة كفيلة بتغيير الحال، فالثورة مستمرة والوحدة على وشك القيام، والرايات مرفوعة والمعارك مستمرة، **والكفاح دوار**!.

ما الفرق بين النظام أيام السنوسى والنظام أيام مؤتمر الشعب العربى؟ لا شىء سوى أن أيام السنوسى كانت الحياة روتينية وخاملة وميتة ومملة، لا يقطع هذا الملل إلا مجىء شهر رمضان أو حلول عيد الأضحى. فى عهد **اللجان الشعبية** الحياة مخيفة ومروعة ومفزعة ومملة أيضاً وكئيبة، لا يقطع هذا الملل إلا صوت المسيرات الشعبية، أو حلول موعد تنفيذ الإعدام فى وجبة جديدة من الخونة، الذين لم يقرءوا **الكتاب الأخضر**، ولم يباركوا الوحدة مع مالطة، ولم يذهبوا مع الجيش الشعبى للقتال فى أحراش بوروندى. وبعد ثلاثة أسابيع غادرت ليبيا.. وإلى الأبد..

بتوع الفريكيكو !

الحق أقول : إننى انبهرت بشدة بجمال المغرب العربى ، جمال جاء نتيجة امتزاج الحضارة العربية بالحضارة الأوربية . هذا الامتزاج نتج عنه عصير سكلانس من حضارتين متناقضتين ومختلفتين على طول الخط ، حضارة أوربية ترى أن الحياة فرصة يجب أن يستمتع بها الإنسان ، ولأنها فرصة واحدة وأخيرة فلابد للإنسان أن ينتهزها ويمصمصها حتى النخاع . وحضارة عربية إسلامية ترى أن الحياة مجرد كوبرى إلى حياة أخرى أجمل وأكمل . والسعيد هو الذى لا يتوقف عند هذا الكوبرى أو يتلكأ . المحظوظ هو الذى يمضى سريعاً وبعيداً عن هذا الكوبرى ، ليلقى بنفسه فى أحضان الجنة حيث الراحة الأبدية والنعيم المستديم .

ولذلك رأيت فى بلاد المغرب العربى جامعات علم كجامعة الأزهر ، ورأيت أحياء متعة ولا حى البيجال فى باريس ، ولا حى سوهو فى لندن . ورأيت فى

مدينة فاس المغربية رجالا أتقياء فى مستوى السلف الصالح ، وعرفت فى مدينة المحمدية ـ المغرب أيضا ـ ما لم تره عين ولا حتى فى هونج كونج . وتعرفت فى حى الزيتونة بتونس على رجال يقومون الليل ووجوههم فى المصحف ، ويسجدون النهار ووجوههم نحو القبلة . ورأيت فى بوسعيد نسوان زلط ملط ، ورجال من **بتوع الفريكيكو** . وتناقشت حول هذه الظاهرة مع بعض المثقفين من المغرب العربى ، وخرجت من المناقشة بأن السبب فى وجود الظاهرة وانتشارها هو تأثير الشاطىء الآخر من البحر ، هناك فى الأندلس حيث عاش العرب مئات السنين ، ووصلوا فى زحفهم حتى أبواب باريس ، ثم تراجعوا إلى كتالونيا ، وحطوا رحالهم فى الكوستابرافا ، وتمرغوا فى حدائق الأندلس ، وتمددوا فى سهول غرناطة . هناك وعبر مئات السنين نشأ نموذج العربى الجديد .

وأشهد أن العرب لم يضيعوا وقتهم هدراً خلال القرون التى عاشوها فى أسبانيا . فقد أنتج الاندماج العربى الأوربى صنفاً من البشر ليس له مثيل فى أى مكان . وأى بنت أسبانية ستجد لها ألف بنت تشبهها فى طنجة وتونس والإسكندرية وبغداد والشارقة وصنعاء . والشعر المرخى على الأكتاف ، والعينان اللتان تطلقان رصاصاً فى القلوب ، والقوام الذى هو شىء بين غصن البان وعصا الخيزران .

واللغة العربية لا تزال باقية . وكل كلمة أسبانية تبدأ بـ (ال) التعريف هى كلمة عربية أصابها بعض التحريف ، لكنها بقيت عربية على كل حال . فالقاضى هو (الكالدى) ، والزيت (الثيت) ، والزيتون (الزيتونث) ، والثور (الطورس) ، والوادى (الجوادى) ، والحجارة (اليخارا) ، والقصر (الكازار) ، والحمراء (الهمبرا) . و (التروبيدور) معناها الطرب يدور . و (الفلامنجو) معناها فلاح مغنى ـ أو المطرب الشعبى بلغة هذه الأيام . و (أوليه) هى الله باللغة الأسبانية . وألوف من الكلمات العربية تجرى على ألسنة أفراد الشعب الأسبانى دون أن يدركوا حقيقتها .

ولكن الأسبان للأسف الشديد يشعرون بمرارة نحو العرب ، ويقولون : إن العرب فتحوا أسبانيا مرتين ، مرة بقيادة **موسى بن نصير** ومرة بقيادة **فرنكو** ! وأصل الحكاية أنه عندما نشبت الحرب الأهلية الأسبانية ، كان فرنكو قائدا عاما للفرقة الأسبانية فى المغرب . وعبر فرنكو البحر إلى أسبانيا بقوات مغربية ، وعندما تحقق له الانتصار أباح لجنوده المغاربة مدينة مدريد لمدة أسبوع . ولايزال الأحياء من أهل مدريد يذكرون تلك الأيام ككابوس ثقيل . وحفظ فرنكو الجميل لهؤلاء ، فاحتفظ بالفرقة المغربية كحرس خاص حتى يوم وفاته . وكان أهم قادة الجيش الأسبانى مغربيا يدعى **محمد مزيان** ، وظل فى منصبه حتى بلغ الثامنة والسبعين ، ولم يترك منصبه إلا بالموت ! .

وتجولت طويلا فى الأرض التى كانت عربية ، أطوف بعواصم المجد القديمة ، قرطبة ، وطليطلة ، والأندلس ، ومجريط (مدريد فى لغة أهل الأندلس) . ولاتزال قصور العرب القديمة شاهدة على حضارتهم العظيمة ، ولا تزال جامعاتهم ومعاهدهم الموسيقية تحكى للأجيال قصة المجد الذى كان . مساكين القيسية واليمنية من أهل ذلك الزمان ، تحاربوا بالسيوف حتى تكسرت ، وبالرماح حتى تحطمت ، وبالنبال حتى تمزقت ، ثم تجاذبوا بالشعور والأظافر والأسنان ! .

يحكى أن حاكم الأندلس **يوسف بن فهرى** ، كان له أعداء ينافسونه على السلطة ، ولكنه تمكن منهم أخيراً ، وذبحهم جميعاً ، ثم أمر بأن يمد له السماط على جثث لم تبرد بعد . ويقال إنه تناول طعامه وهو جالس على الجثث الغارقة فى الدماء ، وإنه تجشأ بعدما انتهى من طعامه وقال قولة شهيرة : « والله ماذقت طعاما أهنأ من هذا قط ! » .

وقفت أتفرج على أطلال مدينة توليدو ، وفى العين دمعة ، وفى القلب حسرات ! لقد رأيت مثل هذا المنظر كثيرا : فى القاهرة القديمة ، وفى بغداد القديمة ، وفى دمشق القديمة .. الهندسة والرسوم والأطلال ذاتها ! وكدت أركع ، وأقبل الأرض التى صافحتها أقدام أبطال العرب القدامى عندما كانوا

رجالا ، وأمعنوا غربا إلى أن وصلوا إلى ميناء طولون الفرنسى ، ثم عادت أقدامهم فانسحبت من الأرض عندما تحول أحفاد هؤلاء الأبطال إلى أشباه رجال ، وظلوا ينسحبون منها فى كرم زائد إلى أن خرجوا منها فى مشهد ذليل ، ولم يخلفوا لنا إلا الذكريات البغيضة مكللة بالعار ! .

ياللأيام التعيسة الحزينة التى عشتها فى الأندلس ، أكاد أبكى على المجد الذى ولى ، والعصر الذهبى الذى ضاع ! من هذه النافذة التى فتحها العرب ، تعلمت أوروبا الموسيقى ونقلت (ألف ليلة وليلة) ودرست تعاليم ابن رشد ، وتتلمذت على الفارابى وابن الهيثم وابن خلدون ! تصوروا ... لو بقيت شبه جزيرة إيبيريا - أسبانيا والبرتغال - عربية حتى يومنا هذا فأى عز لنا ، وأى ظهر نستند إليه ؟ وليتنا نتعلم من أخطائنا ! ولكن فلسطين ضاعت منا كما ضاعت الأندلس بسبب ألاعيب نورى السعيد وغباء الملك فاروق ، وتدبير الخونة والجواسيس ، وجهل الأئمة فى اليمن ، وخيبة الجميع ! ثم ضاع النصف الآخر بسبب نظم الانفتاح والتصحيح والتلقيح ، والسعى إلى تسوية تضمن كراسى الحكم لحكام لفظتهم شعوبهم ، ومستعدين للتضحية بكل شىء إلا السلطة وصولجان الحكم ! وضاعت فلسطين أيضا بفضل نظم **ثورية** اكتفت بإعلان الحرب ضد العدو فى الإذاعة ، ومقارعته بقصائد الشعر ، وحشد كتائب الأناشيد ، وتحقيق النصر عن طريق الأغانى .

ولكن فلسطين رغم كل شىء ، تبقى جزيرة صغيرة محصورة داخل بحر العرب . وفى يوم ما ، فى شهر ما ، فى عام ما ، فى قرن ما ، سيخرج من أصلاب هذه الأمة زعيم(شارب من بز أمه) ، يوحد أمة العرب كما صلاح الدين، ويرفع سيفه كما قطز ، يزحف بهم ليحرر القدس السليبة وعكا الأسيرة . وياحظ الأجيال السعيدة المقبلة التى ستعيش فى ذلك العصر المجيد .

• • •

وياعمق الحسرة التى شعرت بها ذات يوم على شاطىء الكوستابرافا ، التقيت ببنت أسبانية ترطن باللسان الأسبانيولى ولا تعرف غيره ، البنت اسمها (فاتيما) ، وقالت تيمناً باسم القديسة سانت فاتيما . وعبثاً حاولت إفهامها أن فاتيما اسم عربى وأصله فاطمة ، وأن القديسة إياها لابد أنها هى السيدة فاطمة بنت النبى ، أو ربما هى فاطمة أخرى من شيخات المغرب المباركات ، وبعد سقوط الدولة العربية فى الأندلس حولوا الشيخة فاطمة إلى سانت فاتيما ، تماماً كما حولوا المساجد إلى كنائس ، وحولوا دور العلم العربية إلى مزارات للسياح . البنت شكلها عربى ، لو سارت فى شوارع المغرب ، أو مشت فى شوارع القاهرة ، أو تسكعت فى شوارع بغداد ، لما استطاع أحد اكتشاف أنها من غير أهل البلاد .

عزمتنى البنت على أكلة فى بيتها ، أكلة دسمة ولذيذة يطلقون عليها اسم (بهية) ، هى نفسها الأكلة العربية الشهيرة فى المغرب ، والتى يطلقون عليها اسم (بقية) . وهى عبارة عن تورلى أو خليط من عدة خضروات وأصناف لحوم : بطاطس على قلقاس على سبانخ على قرنبيط على كوسة على طماطم على جزر على بصل على ثوم ، على قطع من لحم الضأن ولحم الدجاج ولحم السمك ، على زيت على لبن على ملح على سكر على جبنة على مربة ، على أى شىء وعلى كل شىء ، فهى بواقى من كل الأصناف والأنواع ، وبدلا من التخلص منها بإلقائها فى صندوق الزبالة ، اخترعت المرأة العربية هذه الأكلة اللذيذة الظريفة ، التى أشهد أننى لم أتذوق مثلها إلا فى طاجن الحاج سرور أبو هاشم وفى عزبة صديقى الفلاح ابراهيم نافع . وعندما قلت هذا الكلام لشقيقة البنت فاتيما - وكانت تعرف الانجليزية - نفت ذلك بشدة ، وأكدت أنها أكلة أسبانية ، وأن عرب أسبانيا نقلوها إلى المغرب بعد رحيلهم إلى هناك . وقالت البنت لتأكيد رأيها : إن المرأة الأسبانية حريصة ، بينما المرأة العربية مسرفة . ثم التفتت نحوى وتحفزت كنمر شرس وقالت : ألم تر العرب فى أسبانيا اليوم ؟ إنهم هناك على الشواطىء يعيشون جميعاً كملوك القرن السادس عشر ، ويبعثرون الأموال ، كما يبعثر الأطفال ذرات الرمال على الشاطىء . وسكت

لم أتكلم . صدقت البنت الأسبانية ، فمن ير عرب اليوم خصوصاً فى أسبانيا ، فلن تقدر قوة على ظهر الأرض أن تقنعه بأن عرب اليوم هم أحفاد عرب الأمس الذين كانوا أشاوس ، وكانوا أبطالا ، وكانوا فرسانا ، وأنهم فتحوا العالم بإيمانهم وبسيوفهم ! .

ويذهب عرب اليوم إلى أسبانيا فلا يقضون نهارهم إلا فى النوم ، ولا يقضون ليلهم إلا فى كازينوهات القمار ، ولا يرون من الأسبان إلا نماذج معينة ، هى دائما نماذج من **بتوع الفريكيكو** !.

وكم شعرت بغصة وأنا جالس فى حلبة المصارعة أشاهد معركة بين الثور والإنسان . وهى لعبة أدخلها العرب إلى أسبانيا ومارسوها قروناً طويلة قبل أن تصبح علامة على الأسبان. وكل الأسماء المتداولة فى اللعبة عربية، (التورس) هو الثور ، و (الميتادور) ـ وهو البطل الذى يتولى الإجهاز على الثور بسيفه ـ أصلها كلمة عربية معناها الموت للثور. وكان بطل الحلبة ولا يزال ، يتقدم إلى المنصة التى يجلس فيها الوالى قديماً والمحافظ حديثاً ، ويطلب الإذن له بالإجهاز على الثور . وكان الوالى قديماً يرفع يده ويأذن له قائلا : « الموت للثور » ، وحرَفها الأسبان مع القرون والسنون إلى (الميتادور) .

ماأعمق الشجن الذى تثيره فى النفس زيارة بلاد الأندلس ، البلاد التى اضطر العرب إلى الرحيل عنها بعد أن تمزقت دولتهم إلى إمارات وممالك ، وبعد أن تقاتلوا فيما بينهم حتى تكسرت الرماح والسيوف فتقاتلوا بالفئوس حتى تحطمت ، وتجاذبوا بالشعور والأظافر والأسنان ، واضطر آخر ملوكهم إلى البكاء وهو يغادر الشاطىء الأسبانى ، راحلا فى مركب تعيس إلى الشاطىء المغربى .. بكى آخر ملوك العرب وهو يلقى آخر نظرة على الشاطىء الأندلسى ، فنهرته أمه بشدة وزجرته بعنف ، وقالت له : « ابك كالنساء على ملك لم تستطع أن تحافظ عليه كالرجال ! » . ماأحوجنا نحن العرب اليوم ، إلى أن يبكى كل فرد منا كالنساء ، على فلسطين التى ضاعت منا ، ولم نستطع أن نحافظ عليها كالرجال ! .

وإن طال السفر

وإذا كان المغرب العربى قد بهرنى بجمال الطبيعة والخضرة الدائمة كأنما هو ضاحية فى جنة عدن ، فقد هزتنى شبه الجزيرة العربية أكثر ، وبهرنى كل شىء هناك ، حتى البداوة والجهالة ، ونمط السلوك الذى كان سائدا فى عصور ماقبل التاريخ ! وبعد رحلة شاقة مملة مرهقة ، هبطت الطائرة فى أرض خلاء يقال لها مطار ، في ركن من أقصى بقعة فى شبه الجزيرة . وبالرغم من أننا وصلنا فى الظلام ، إلا أننا لم نلمح أى أثر لأنوار المطار ، وخيل إلينا أننا نهبط هبوطا اضطراريا فى المحيط الهندى . وعندما استوت الطائرة تجرى على الأرض الصلبة ، هتفت من أعماقى كما هتف العربى القديم : « لابد من صنعا وإن طال السفر » ! .

هذه إذن صنعاء وكل شىء على حاله منذ جدنا آدم عليه رضوان الله ـ آسف واعتذر ، والاعتذار أتقدم به الى سيدنا آدم عليه السلام ـ لأنه لو قام من قبره وتجول فى أنحاء اليمن التى رأيتها وقتئذ لتحسَر على سوء الأحوال الذى تردت

اليه البشرية من بعده ، ولانفطر قلبه حزنا على أبنائه الذين يقاسون كل هذه الأحوال ! حتى الطبيعة ساءت عما كانت عليه عندما خلقها الله ! الجبال نفسها أضحت أكثر جهامة وأكثر قتامة ، ولاحول ولاقوة إلا بالله ! والشوارع .. أى شوارع ؟! أقصد المسالك ، مشقوقة هكذا بلا قصد ولا نظام ، كأنها دروب مهجورة داخل غابة انزلقت من ذاكرة الزمان ! ياللهول ، على رأى عمنا يوسف وهبى . هل هذه هى اليمن السعيدة ؟! وأى سعادة فى أن يحيا الانسان غارقا هكذا فى الوحل ؟! سابحا هكذا فى الصمت ؟! مخنوقا هكذا فى الخوف والرعب والاضطهاد ؟! .

وكان **الملك أحمد** ، أو **الإمام أحمد** ، أو **سيف الإسلام أحمد** ، جالسا على سرير الملك لحظة صافحت قدماى أرض اليمن . أو بمعنى أصح ، كان نائما على سرير الملك ، ولم يكن معه من أدوات الحكم إلا سيفه وبطشه . وكل مآثره فى سنوات حكمه السعيد ، وهو سعيد باعتبار اليمن سعيدة ، أقول كانت كل مآثره مئات من الرؤوس تولى قطعها بسيوف صدئة ، لدرجة أن القتيل كان يرشو السياف لكى يختار سيفا أكثر حدة ! .

ولم يكن فى اليمن شعب ، ولكن كانت فيها قبائل . وكان رؤساء القبائل يؤمنون بأن الإمام أحمد فيه سر من عند الله ، فهو يعلم ماتهمس به الشفاه وماتخفيه الصدور ! ولكن اليمنى العاقل كان لايخفى رأيه بل يجهر به حتى يقبض عليه الإمام ويقتله . وكان لحظة القتل يتقدم إلى السياف ، والبشر يطفح من وجهه ، والبسمة تحتل مكانا عريضا على شفتيه ! ويموت اليمنى العاقل آخر سعادة وانسجام ! ويحسده غيره من أهل اليمن ويحقدون عليه لأنه مات تاركا إياهم فى جحيم الإمام ! ولم يكن فى اليمن الا طبيب إيطالى واحد لزوم معالجة أسنان الإمام . ولم تكن فى صنعاء العاصمة إلا صيدلية واحدة تغلق أبوابها مع غروب الشمس ، فإذا أحس أحد اليمنيين بمغص أو بصداع ، دق أبواب قصر الإمام طالبا حبة أسبرين أو جرعة دواء ! .

وكان المواطن اليمنى إذا فكر فى السفر من مكان إلى مكان فهو إما فدائى

وإما مجنون ! وإذا التقى يمنى بآخر بعد الغروب فهو إما قاتل أو مقتول . وكان الانجليز يحتلون اليمن الآخر . وكان الإمام يحتل اليمن الذى نزلنا فيه . وأشهد شهادة حق لله وللتاريخ ، أن الاستعمار البريطانى كان أخف وطأة من الاستعمار الإمامى ، وأن نظاما مثل هذا ليس له مثيل فى أى زمان أو مكان ، حتى ولا أيام الهكسوس ! .

كانت المناسبة التى نزلنا فيها اليمن هى الاحتفال بالوحدة الورقية التى قامت بين اليمن والجمهورية العربية المتحدة . ولكن حتى هذه الوحدة الورقية أقلقت هؤلاء الذين يتربصون بالعرب الدوائر . وهؤلاء المتربصون أجانب أحيانا ، وعرب أحيانا أخرى . ولله فى خلقه شؤون ! ويبدو أن الإمام أحمد قد استجاب لإغراء الرشوة فأنشد يوم الاحتفال قصيدة من نظمه :

نـــريدها وحـــدة بيننا مبنيـــة
علـى أسس بيننا مرعيـــة
يكون عمادها المحبة والوئـــــام
وأساسها حكم الشريعة والإسلام

وأضاف إليها أحد الظرفاء من عنده :

ويكون رئيسها جلالة الإمام
وأشرب كوكولا واتمدد ونام !

وألح على عقلى سؤال بلا جواب : هل هذه هى اليمن حقا ؟! هل هذه أرض بلقيس وسد مأرب ؟! أمن هنا سارت الجحافل اليمنية تفتح الأرض فى سبيل الله ؟! لقد أنجبت هذه الأرض على طول الزمان أشجع رجال العرب ، وأشدهم بأسا على الإطلاق . واليمنى لا يعرف قلبه الخوف ، وهو إذا حارب دمر كل شىء أمامه أو دمر نفسه ؛ لأنه لا يعرف الانسحاب حتى ولو كان (طبقا لخطة موضوعة) ، كبلاغات الحرب هذه الأيام ! طيب ... إذا كان اليمنى الفرد

لايعرف الخوف طريقه إلى قلبه ، وإذا كان المحارب اليمنى لا يتقهقر على الإطلاق ، فلماذا إذن تقهقر اليمن الوطن بضع مئات الألوف من السنوات إلى الوراء ؟!! ولماذا انسحب اليمن الشعب لايلوى على شيء ، حتى أشرف على هامش الزمان والمكان ؟! واختلست نظرة إلى الحصن الذى يتقوقع داخله الإمام . إنه فرد واحد ، ولكنه حقق النصر الحاسم على شعب بأسره وألحق به هزيمة منكرة ، وفشل فى ذلك عشرات القادة والجيوش على مر الزمان ! من هنا يبرز دور الفرد فى التاريخ .

وعشت أياما فى صنعاء ، لم نر فيها شيئا ولم نتصل بأحد .. حتى الذين حاولنا أن نتحدث اليهم كانوا يفرون من وجوهنا كأنهم أصحاء يفرون منا حتى لا نصيبهم بالجرب ! وعدنا من حيث أتينا ، لم نتعرف على اليمن ، ولم تتعرف علينا اليمن ! ولكن ظلت اليمن ماثلة أمامى لا تبرح خيالى قط . وتصورت أننى لن أرى اليمن فى حياتى . ربما سنحت الظروف لأبنائى أو أحفادى .

ولكن ، لأن زمن المعجزات لم يذهب بعد ، فقد حدثت المعجزة : مات الإمام أحمد وتولى **الإمام البدر** وقامت الثورة فى اليمن ! **ثورة فى اليمن** ؟! هذا هو الذى حدث ، وفر الإمام فى ملابس النساء ، وقامت الدنيا فى العالم العربى ولم تقعد بعد ! ذهب جيش مصر ليحمى الثورة فى اليمن . وذهبت جيوش المرتزقة والخونة لتعيد عقارب الساعة إلى الوراء . وأتيح للعبد لله أن يذهب مرة أخرى إلى اليمن . ولكنها كانت يمن جديدة ومختلفة . كانت المعارك على أشدها والشهداء يسقطون كل يوم بالمئات ، وبعض القبائل حولت حرب التحرير إلى مباراة ، فيوم هنا ويوم هناك ! وبالرغم من المعارك والدماء والمآسى ، استطعت أن اتعرف على اليمن . وذهبت مع اليمنى إلى الجبهة ، ولمست بنفسى شجاعة اليمنى على الجانبين . وغبت عن الوعى مع اليمنى أمضغ نبات القات . وجلست على مائدة اليمنى التهم (أم الصدن) . وخرجت بنتيجة باهرة : إن اليمنى لايزال هو اليمنى بكل أصوله وصفاته ، لم تستطع الأمراض والجهل وحكم الإمامة أن تقضى على جوهره ، وإن قضت على

هيكله ! صحيح أن الجلد أصبح على العظم ، ولكن الذكاء الموروث ظل كامنا يبدو فى بريق العينين ، وعلى سطح الجلد نفسه !.

ولقد أتيح لى أن أشهد بعينى رأسى نبض الحياة ، وهو يعود بالتدريج إلى جثة اليمن : مدارس جديدة ، ومستشفيات حديثة ، وشوارع شقت على عجل ، وساحات كانت أرضا مهجورة فى ظل الإمام . ورأيت أول جماعة من المهاجرين عادت إلى اليمن بعد الثورة . جاءت مستريبة فى كل شيء ، لاتصدق أن الإمام قد انتهى . وهؤلاء الذين صدقوا نهاية الإمامة كانوا يعتقدون أن **السلّال** هو مجرد إمام جديد حل محل الإمام الذى سقط !.

والتقيت بفتاة فى عمر الورد ترتدى البنطلون وبلوزة على اللحم ، جاءت مع المهاجرين لتشاهد بنفسها البعث الجديد فى اليمن . ولما أبديت دهشتى من وجود فتاة يمنية بالبنطلون ، قالت البنت وهى تضحك : لعلك لاتعرف أن البنطلون فى اليمن حق النساء ، أما التنورة فهى حق الرجل ! وقال لى ضابط مصرى كبير فى صنعاء : هذه حقيقة . وكانت أخطر إشاعة أطلقها رجال الإمام ضد جيش مصر تقول لأهل اليمن : انظروا إلى هؤلاء الجنود المصريين ، إنهم يرتدون البناطيل التى هى حق النساء ، إنها الدليل القاطع على أن هؤلاء الجنود أجانب وكفرة ، وليسوا من جنس العرب ! وقالت لى اليمنية المتبنطلة : أنا أعيش فى إفريقيا منذ عشرين سنة ، وغادرت اليمن وعمرى ثلاثة أعوام مع والدى الذى آثر الفرار من حكم الإمام إلى الغابات والوحوش الكاسرة . ولقد خرجنا من اليمن بلا شيء تقريبا ونحن الآن نملك ثروة لابأس بها . والحق أقول : ان كل الذين هربوا من الإمام خرجوا بلا شيء تقريبا . ولكنهم استطاعوا بعد فترة أن يصبحوا أثرياء للغاية . فاليمنى ذكى وشجاع وصبور وقادر على التكيف مع أى بيئة والعيش فى أى مجتمع .

منذ ربع قرن تقريباً كنت فى طنجة ، وكانت طنجة دولية، وكانت تعيش فيها كل الملل والأجناس .. إلا جنس العرب : خواجات على قفا مين يشيل ، وهنود بعدد النجوم ، وصينيون بعدد الحصى ، ويونانيون وقبارصة ، ويهود

أكثر من الهم على القلب ، وناس من مالطة ، وناس من جزر هاواى . ياميت ندامة على هذا البلد العربى ، ليس فيه عربى إلا سكانه وهم على مايبدو جميعا من اتباع المرحوم غاندى ، فلا ملابس ولامأوى ولا طعام ! ودخلت السوق فى القصبة ذات يوم وسألنى التاجر : هل أنت هندى ؟ وأجبته بالنفى . فسألنى : هل أنت أسبانى ؟ وأجبته بالنفى . فسألنى : هل أنت إسرائيلى ؟ ولما بدا الاشمئزاز على وجهى ، قال إذن أنت عربى ؟ فلما أجبته بالايجاب ، مد يده مصافحا وقال بلغة عربية سليمة : كيف حالك ؟ وظننته من أهل البلاد ، ثم اكتشفت بعد ذلك أنه أخ عربى من اليمن . قال لى الأخ عبد الواسع : نحن هنا حوالى ثلاثة آلاف يمنى يعمل أغلبنا فى التجارة ، وبعضنا يعمل فى مجال الحرف !.

مرة أخرى منذ عشرين عاما كنت فى زيارة خاطفة لهونج كونج ، وأردت شراء بعض الملابس ، ولكنى ترددت فى آخر لحظة . وعندما سألنى رفيقى فى الرحلة عن سبب ترددى ، قلت له بالعربية : يظهر أنهم حرامية وغشاشون،وضحك التاجر واكتشفت أنه من اليمن ! ما أكثر الأخوة اليمنيين الذين تصادفهم فى طريقك فى كل مكان فى لندن ووارسو وباريس ومالطة ومدريد . وكلهم تجار ، وكلهم آخر نجاح وآخر جدعنة ! واليمنى ظريف ولطيف ومهذب وناعم للغاية ، ولكنه أسد مفترس إذا لزم الأمر !.

كنت فى زيارة **لعلى العواضى** ، وكان وزيرا للحربية فى وقت مابعد الثورة ، وكان الوزير فى جلسة قات مع بعض القادة ، حين دخل عليه ضابط برتبة صغيرة يبلغه نبأ القبض على أحد المفسدين . وقال الوزير على الفور : « بز رأس أبوه » ، وكان يقصد اقطع رقبته . ثم جلس يمضغ القات فى هدوء ! وعندما خرجنا من المنزل رأيت عددا من الصبية يلعبون برأس المفسد المقطوعة مباراة حامية فى كرة القدم !! وسألنى زميل فى الرحلة : الآن بدأت اليمن ، فكم من السنين تقدر لها لكى تصبح جوهرة لها شأنها فى قلادة العرب ؟ قلت : هذا يتوقف على أحوال العرب ، إذا بقيت هكذا على حالها وظل الحال هكذا على عفونته فلن تقوم لليمن قائمة . قال زميلى : ليه ؟ قلت : هذه قصة أخرى ! .

• • •

ولكن يبدو أن نظرتى إلى مستقبل اليمن كانت تحمل كثيرا من التشاؤم. فأحوال العرب ازدادت سوءا ، وربما لم يشهد العالم العربى عصرا أسوأ من هذا العصر الذى نعيش فيه . لم يقف تقسيم المغرب العربى عند حد المغرب والجزائر وتونس وليبيا فقط ، زاد الخير خيرين فنشأت دولة جديدة هى الصحراء،وأضيفت إلى حكومات العرب حكومة جديدة هى **الحكومة الصحراوية**. وبينما تضاعفت أغانى الوحدة ازداد التقسيم ، حتى وصل إلى حد تقسيم مدينة بيروت إلى شرقية وغربية .

وبالرغم من ذلك حققت اليمن معجزة بكل المقاييس . تخلصت اليمن من نظام العشائر والقبائل ، ونفضت عن كاهلها حكم الأئمة ، وتحولت صنعاء إلى مدينة عصرية ، وفتحت المدارس أبوابها لاستقبال ألوف الصبيان والبنات ، ودارت المطابع تطبع الصحف والكتب والبحوث العلمية . وشهدت اليمن طفرة فنية وصار للفن اليمنى مكان محجوز فى أجهزة إعلام الأمة ، وأصبحت اليمن سندا ودعما لقضايا العرب . وما أصعبها فى عصرنا الحديث ! معجزة نادرة الحدوث ، ولكنها فى اليمن حدثت . وهى لم تحدث بسهولة ، ولكنها تعرضت لهزات ونكسات ، وأوشكت أحيانا على الإجهاض . ولكنها تغلبت - بالرغم من ذلك - على ظروفها الصعبة . وعاشت اليمن التى كانت سعيدة تحاول صنع المستحيل لتصبح سعيدة من جديد . معجزة ... نعم ، تحققت بفضل شعب اليمن ، وأيضا بفضل العسكرى المصرى المجهول ، الذى مات على قمم الجبال هناك ، وفى سهول اليمن الفسيحة . والمعجزة الأكبر أن شعب اليمن لم ينكر فضل العسكرى المصرى المجهول - كما حدث فى أجزاء شتى على اتساع الوطن العربى - فهم يذكرونه بالخير ، ويشكرونه دائما ، ويحمدون فضله ،

باعتبار أنه لولاه ، ولولا بندقيته التى سارعت فى بداية الثورة لحمايته ومساندته ، لولا هذه البندقية ، فربما كانت اليمن الآن فى طريقها إلى العصر الحجرى .

ولكن الحمد لله ، الذى أتاح لليمن ظروفا مواتية ، مكنتها من تحقيق المعجزة . ولأن ماحققته اليمن معجزة ، فهى تحتاج إلى كتاب ضخم وليس إلى فصل من كتاب . وهو وعد من ابن عطوطة إذا امتد بنا العمر ، وتوافر الوقت ، وتحققت أمنية قديمة للعبد لله ، وهى الطواف باليمن السعيدة ، قرية قرية ، ومدينة مدينة ، فى محاولة لاكتشاف جنس العرب . وباعتبار أن اليمن هى أرض العرب العرب . أما العرب خارجها - تاريخيا - فهم العرب المستعربون ! .

آلة الزمن

وتركت اليمن، التى ساءت أحوالها عما كانت عليه فى عهد سيدنا آدم، إلى عمان. وكان السلطان سعيد بن تيمور لا يزال جاثماً على أنفاس شعبه، وإن كانت كلمة (شعبه) لا تليق بوصف المخلوقات التى كانت يحكمها السلطان. لم يكن هناك شعب، ولا حتى رعايا. وخيل إلىَّ من أول نظرة ألقيتها على البلاد أن هؤلاء الناس مجرد أسرى طال بهم الزمن، وأن عمان ليست وطناً وإنما معسكر اعتقال كبير، وأن الداخل هنا مفقود والخارج مولود، ولا حول ولا قوة إلا بالله!.

وأصابتنى دهشة شديدة لأن الريال العمانى يتمتع بقوة شرائية عظيمة. ولكن دهشتى تبخرت عندما اكتشفت أنه ليس فى السلطنة كلها من يملك ريالا إلا السلطان، وأن الريال يحتل فى أذهان أهل عمان صورة الأسطورة، بل إنه أصبح لدى البعض منهم شىء أشبه بالغول والعنقاء والخل الوفى! دولة تعيش فى النصف الثانى من القرن العشرين، بلا ماء ولا كهرباء ولا شوارع

ولا مقاه، ولا حدائق ولا مواصلات. وللمدينة سور يغلق عليها بعد غروب الشمس، فإن وصل إليها أحد بعد ذلك نام خلف السور حتى الصباح! وسيىء الحظ هو من يطلع عليه الصباح ويتمكن من اختراق السور، لأنه سيترك خرابة إلى خرائب أكثر، وسيفارق خلاء إلى خلاء أوسع، وسيهرب من الذئاب إلى من هو أكثر ضراوة من الذئاب، وهو السلطان!.

وفوجئت بأن كل شيء نادر وقليل فى عمان، الماء والطعام والنقود. الشيء الوحيد الذى يوجد بوفرة هو الذقون، ذقون طويلة وكثة وغزيرة الشعر. والرجال جميعاً يتحلون بهذه الذقون ويدهنونها بالمسك والطيب! والشيء الآخر الذى يوجد بشكل أوفر من الذقون هو الأمراض السرية. فهى ترعى بين أفراد الشعب كحريق شب فجأة فى غابة أصابها الجفاف منذ زمن طويل!.

ولقد مرت علىَ فترة فى صباى المبكر كنت أشعر فيها بأسف حقيقى؛ لأننى ولدت فى القرن العشرين، وكنت أتمنى لو أننى جئت إلى الحياة فى وقت ما من القرون الوسطى. ولكن عندما وقع بصرى على أرض عمان حمدت الله لأن أمنيتى لم تتحقق، ولأننى جئت فى القرن العشرين، وفى بلد يطل عليه من قرب! فلقد شعرت لحظة دخولى مسقط أننى بعثت فجأة فى مدينة عربية فى عهد العباسيين! وأننى دخلت المدينة بعد ما دمرها التتار بوقت قصير! لم تكن مسقط مدينة بالمعنى المحدد للكلمة، ولكن كانت هناك بضع قرى متقاربة، ولم يكن فى هذه القرى شيء يوحى بالحياة إلا الأحياء الذين يدبون على الأرض فى إعياء شديد!.

والمرأة عورة لا يمكن أن تقع عين عليها، ولكن العالمون ببواطن الأمور يؤكدون أنها فى (الواقع) أكثر حرية من بنات لندن وباريس! والمخدرات ممنوعة بأمر القانون، ولكن بالنظرة السطحية ستكتشف أن الشعب كله مسطول ومنسجم ومحلق فى العلالى مع دخان وضباب الحشيش! دخلت سوقاً مسقوفة وخيل إلىَّ أن الباعة والتجار والزبائن جميعاً ممثلون كومبارس فى فيلم عن عصر قديم! كان التجار يجلسون الواحد بجانب الآخر على الأرض،

يعرضون بضاعتهم فى قفف، وهى بضائع مختلفة من الذهب الى السمك، إلى التبغ، إلى الحلاوة المسقطية، إلى الموز، وهو موز إفريقى يكفى أن تضرب بواحدة منه عدوك فيسقط قتيلا فى الحال! والناس أقرب إلى الهنود منهم إلى العرب، وإحساسهم بالانتماء العربى يكاد يكون منعدماً. والسبب هو حكم السلطنة الذى توجه بالصلات نحو الهند وباكستان، وتوجه بالركوع والسجود نحو إيران! ولذلك ستجد أن أكثر الأغانى هندية، وأكثر المصنوعات إيرانية، وأغلب العادات إفريقية، خصوصاً إفريقيا الشرقية السوداء!.

ولطمت على خدى حزناً على المصير الذى انتهت إليه أرض عربية كانت درة فى تاج العروبة، وكانت حجر الأساس فى صرح العروبة وإلى زمن طويل! فإلى هذه البلاد كان ينتمى أعظم حكام إفريقيا الشرقية من دار السلام وزنجيبار أو (بر الزنج) كما كان يطلق عليها أيام المجد القديم! وإلى هذه البلاد أيضاً كان ينتمى آخر الملوك العرب فى الكونغو أو ما يعرف الآن بزائير، وهو الملك(تيبوتيبو)، وكانت كاتنجا هى عاصمة ملكه، والذى داس الجنود البلجيك عرشه عندما دخلوا الكونغو منذ حوالى مائة عام لا تزيد! وهذه البلاد نفسها هى التى فرضت إتاوة على السفن البريطانية خلال رحلتها من الهند وإليها. وهى التى حطمت أسطول البرتغال فى مياه الخليج، واستولت على كنوزه ومئات الأسرى الذين لا يزال أحفادهم يعيشون حتى الآن فى إمارة رأس الخيمة، ويعرفون هناك باسم (الشحوح)!.

ما الذى جرى حتى حدث هذا للبلد الذى كان يوماً ما أقوى دولة بالمنطقة، فأصبح الآن يستعين بالعساكر الأجانب لحماية عرش السلطان من غضبة الشعب المطعون؟! ما الذى جرى لصنف العرب حتى أصابهم كل هذا العطب؟ ولماذا صنف العرب وحدهم هم الذين تأخروا، بينما العالم من حولهم ينطلق فى ثقة إلى الغد السعيد؟! إنها الفجوة التى حدثت بين بعض نظم الحكم فى أجزاء من الوطن العربى والناس الذين أوقعهم سوء الحظ تحت حكم هذه النظم. ففى اليمن كان السبب هو الإمامة. وفى عمان كان السبب هو السلطنة.

وسلطان عمان كان يتمتع بجهل إمام اليمن، ولكنه لا يتمتع بذكائه! كان الإمام ذكياً رغم كل شيء وكان قوياً أيضاً. بينما سلطان عمان كان أغبى من ثور، وأضعف من ذبابة! وكان الخطر الحقيقى يهب عليه من أجزاء أخرى فى الوطن العربى.. أجزاء أخرى تحررت وهبت تصارع لتلحق بقطار الزمن الذى يكاد يغادر محطة القرن العشرين! لذلك عمد السلطان إلى إضعاف اللغة العربية حتى لا تقلق الإذاعات العربية أسماع مواطنيه، وشجع لغات أخرى تكفل له الراحة والطمأنينة. وانتهى بعد ذلك إلى إخفاء المدن خلف أسوار متينة البنيان، ثم إلى دفن البلد كله تحت تلال هائلة من الفقر والجوع والخرافة. ثم تتويج هذا كله بجهاز قهر مدرب، ولديه كل الامكانات، وله كل الصلاحيات لقتل كل من تلوح عليه علامات الرفض أو المعارضة، وحتى عدم الموافقة على ما هو كائن، باعتبار أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان!.

وبالرغم من الخيبة التى هى بالويبة، والوكسة التى هى أعظم من النكسة، فقد رأيت فى عمان مالا عين رأت ولا أذن سمعت، حضرت سوقاً للرقيق يباع فيه العبيد فى المزاد! كانت البضاعة المعروضة عدة رجال، وعدة نساء، وعدداً قليلا من الأطفال. وكان المشترى يتقدم من الطابور البائس يتحسس البضاعة قبل أن تبدأ عملية المساومة بين البائع والراغب فى الشراء! كان الأطفال هم البضاعة المرغوبة، ثم النساء. وكان القطيع البائس أغلبه من إفريقيا. ولم تكن النساء المعروضات من النوع الذى يصلح للمتعة، بل كن جميعاً من الصنف الذى يصلح للخدمة. ولذلك فقد كان المشترى الذى تقدم ليدفع الثمن، من رجال السلطان. وهؤلاء النسوة سيقمن بالخدمة فى حريم السلطان، فقد كانت الخدمة وقفاً على الحريم الأفارقة، أما المتعة فكانت من نصيب الأتراك والهنود وبعض النسوة من سنغافورة وأندونيسيا وسيام! وكان ثمن البنى آدم الحى الذى تجرى الدماء ساخنة فى عروقه ثلاثين ريالاً عمانياً لا أكثر ولا أقل! هذا للرجل أو المرأة. أما الطفل فكان ثمنه يزيد قليلاً، حتى يصل إلى الخمسين ريالاً. وعندما انفض السوق، كان التاجر قد تبقى معه عدد من الأرقاء، بعضهم كبار السن ربطهم جميعاً فى حبل، وافترش الأرض معهم

وجلس يعد النقود، ثم نهض يسحب قطيعه خلف ظهره فى رحلته إلى المجهول فى بلاد السلطان!.

وقادنى رفيقى ذات ليلة الى منزل منعزل فى حى الهنود حيث تدور ليالى المتعة للأجانب المقيمين فى مسقط. واستقبلتنا امرأة هندية بدينة تتحلى بمصاغ من ذهب لو تحلى به جمل لما استطاع أن يسير! وأدخلتنا المرأة حجرة عارية من الأثاث فجلسنا على حصيرة مفروشة وعليها بعض الوسائد المتناثرة هنا وهناك، ثم دخلت فتاتان هنديتان تدوران حول الرابعة عشرة وربما أقل من ذلك بعدة شهور. ونظرت إلينا الفتاتان فى غباء شديد، ثم تعرتا تماماً فى هدوء. وراحت إحداهما تعزف على آلة، بينما راحت الأخرى ترقص وقد بدا عليها التوتر والخوف الشديد! وفى ليلة أخرى سحبنى رفيقى من يدى إلى بيت آخر، فى حى اليمنية حيث دخان الحشيش يعبق فى كل أرجاء البيت، وعدد من المدمنين من أهل البلاد يدخن بشراهة صنفاً هندياً رديئاً لو دخنه حمار لنام مكانه يتثائب لمدة عام! وقال صاحبى الذى كان على علم شديد بأحوال البلاد والعباد فى عمان: لو كان فى السلطنة مستشفيات بعدد هذه البيوت لصارت عمان واحدة من أعظم البلدان.

وكان رفيقى فى السفر تاجراً كبيراً من دولة الإمارات. ودخلت عمان معه باعتبارى سكرتيره الخاص، والجنسية فلسطينى الأصل من عكا، والاسم (أحمد الترمانى العكاوى). وكان التاجر العربى على صلة وثيقة وطيبة بحكام البلاد. وبالرغم من ذلك كان شهماً الى الحد الذى جعله يقبل بهذه المغامرة. ولو انكشف أمرى هناك لفقدت رأسى إلى الأبد، ولفقد هو الآخر رأس ماله الذى يصل فى عمان إلى سبعة أصفار! كان الرجل رغم غناه يحب عبد الناصر بجنون، وكان يرى فيه فتى العرب القومى، وصوت العروبة المعبر، وذراعها الممدودة فى وجه الأعداء. وكان يعتقد أنه لولا عبد الناصر لابتلعت المنطقة إيران. كنا نجلس وقتها فى بيت المخدرات. ولذلك انطلق الرجل يتكلم دون خوف. فهنا المكان الوحيد الذى لن يستمع اليك فيه أحد؛ لأن الكل هنا مسطول

وضائع، وآخر انسجام! وبينما كانت حلقات الدخان تنعقد فوق رؤوسنا داخل البيت الصغير فى ضواحى مسقط، كانت مدافع الثوار تنطلق فى رأس الجبل الأخضر. وكانت رائحة البارود تختلط برائحة الحشيش فى مسقط! ثم فجأة جاء **قابوس**. واستبشر الناس خيراً. وكان قابوس عند حسن ظن الناس، واستطاع بمعجزة نقل عمان من القرن الأول الميلادى إلى القرن التاسع عشر.

• • •

ولسوء الحظ لم أشاهد عمان فى وضعها الجديد، ولكنى استطعت أن أدرك عمق التغيير الذى حدث هناك. وكانت وسائلى إلى معرفة هذا التغيير وسائل غير تقليدية. شاهدت **فريق عمان فى كرة القدم** فى دورة الخليج عام ١٩٧٦، ثم شاهدته فى دورة الخليج عام ١٩٧٨، ثم شاهدته فى دورة ١٩٨٠، ثم فى دورة ١٩٨٢، ثم فى دورة ١٩٨٤، ثم فى دورة ١٩٨٦. وأشهد أن التطور الذى حدث فى فريق كرة القدم لا يمكن حدوثه فى أرض خراب. ليس هذا فقط، ولكنى أرشح فريق عمان إلى بطولة دورة الخليج القادمة، وأرشحه للمنافسة على بطولة آسيا القادمة! معجزة لا شك، خصوصاً إذا علمتم أنه فى عهد سعيد بن تيمور كان لعب الكرة جريمة، وكان ارتداء زى الكورة رجس من عمل الشيطان!.

وسيلتى أيضاً لمعرفة ما جرى فى عمان، هى **فرقة عمان المسرحية**، وقد اشتركت فى مسابقة مسرح الخليج لعام ١٩٨٧. وبالطبع فازت الكويت بالجائزة الأولى، وفازت الإمارات بالجائزة الثانية، وفازت قطر بالجائزة الثالثة. طيب.. وأين فرقة عمان؟ لقد حققت ما هو أخطر من الجوائز. فازت الممثلة (منى) من فرقة عمان بجائزة أحسن ممثلة. يا سبحان الله. منذ خمسة عشر عاماً كان اسم المرأة عورة، وكان خروج المرأة إلى الشارع يجلب النحس للجميع. وكان (التشخيص) عملية كفر بالله وخروج على ناموسه! لدرجة أن مراسلا أجنبياً زعم فى تحقيق صحفى عن عمان، أنها البلد الوحيد على ظهر الأرض الذى يحتفل بزواج الذكور! ربما كانت مبالغة أو أكذوبة من

جانب المراسل الأجنبى، ولكن المرأة فى عمان لم يكن لها مكان إلا فى مطبخ البيت، وغير مسموح لها بالقيام بأى رحلة إلا رحلتها النهائية إلى القبور. ولك أن تتصور ما الذى حدث فى عمان إذا عرفت أن فتاة من بناتها حصلت على جائزة أحسن ممثلة فى مسابقة مسرح الخليج.

الوسيلة الأخيرة التى كانت دليلى إلى التغيير الذى حدث فى عمان هى أحاديث الأصدقاء الذين عملوا فى حكوماتها وقضوا سنوات هناك. أحدهم هو الصديق الكريم المستشار **صلاح نصار**. كان وصفه لعمان شديد التركيز، وفصيح التعبير أيضاً. قال وهو يتحدث عن تجربته هناك: بلد يلتقى فيه القديم والجديد، ويأخذ أحسن ما فى القديم، وأفضل ما فى الجديد، وسيصنع من هذا المزيج شيئاً رائعاً وغير مسبوق فى يوم من الأيام.

إن ما حدث فى عمان هو (حالة)، وهى كأى حالة تحتاج إلى مراقبة ومتابعة وفحص. وهو إجراء يحتاج إلى وقت. ولأننا لا نملك هذا الوقت، فنحن لا نستطيع أن نقدم تقريراً طبياً يشخّص الحالة، ويمكن الاعتماد عليه. ولكن كل ما نملك قوله عن حالة عمان: إنها بلد كان مصاباً بواحد من أخطر الأمراض المستعصية، ولكنها تمكنت من الخلاص منه، وإن كانت لا تزال تعانى من آثاره، ولكنها فى طريقها إلى الشفاء التام، وقد يستغرق الشفاء وقتاً، ولكن الأكيد أنها ستشفى. معجزة.. أليس كذلك؟!.

الشيخ لعبوط

ولقد خرجنا من أرض الظلمات بأعجوبة . وقطعناها من مسقط إلى واحة البوريمى على حدود الربع الخالى ، صحراء العرب الميتة التى اكتشفها نيابة عنهم عدد من الرواد الأجانب! وكانت البوريمى موضع نزاع لحظة أن وصلنا إليها ، الشيخ شخبوط يقول : إنها من أملاكه ، والملك سعود يطالب بها أيضا ، وسعيد بن تيمور له حصة فيها ويحمد الله على ذلك ! وكان **شخبوط** حاكما من طراز فريد . كان الحاكم القوى فى رأيه هو الحاكم الذى يعاقب الرعية ، وكانت السياسة عنده هى العناد. ولم يلحظ الشيخ شخبوط عمق التغيير الذى طرأ على العالم . وبالرغم من تفجر الأرض تحت قدميه بالنفط ، وبالرغم من امتلاء خزانته بأوراق النقد ـ ولم يكن هناك أى فرق بين خزانة الدولة وخزانة شخبوط ـ إلا أن إمارة أبوظبى ظلت على حالها . فالسعيد من أهلها من يجد تمرا . والمحظوظ هو من يصادف عين ماء ، أما من انفتحت لهم طاقة القدر ، فقد تمكنوا من الهروب من قبضة الشيخ شخبوط ! .

وعندما نزلت العين (قسم من أقسام البوريمى) كان الشتاء يزحف نحو النهاية ، ولكن الجو كان دافئا والشمس تلعلع فى العلالى ، وعيون الماء تجرى تحت الأقدام . وثمة مزروعات ولكن قليلة. والناس تهمهم ولا تتكلم . ومقهى واحد ورواد قلائل ، ولكن يبدو من المنظر العام أنهم فى المقهى وفى أماكنهم منذ مائة عام !! ولكنى بعد يوم واحد فى العين اكتشفت أن هؤلاء البشر الذين تصورت أنهم يغطون فى النوم ، قوم أذكياء وأنهم عرب ، ولكن العين بصيرة واليد قصيرة . فما العمل ، والشيخ شخبوط يركب آلة الزمن ويطلقها بأقصى سرعة إلى الوراء ؟.

ولقد ألهمتنى هذه الزيارة السريعة مسلسلة إذاعية تحت عنوان **(الشيخ لعبوط يتلعبط)** : قصة رجل ضايع ذهب إلى لندن للعلاج ، فألقت القبض عليه مخابرات بريطانيا ، ونقلته إلى دار الضيافة ، وحددت له موعدا مع الملكة . ولما حاول الرجل الاستفسار عن سر هذه (العملية) الغريبة ، جاءه الجواب بأن مخابرات بريطانيا لاتفوتها واردة ولاشاردة ، وأنه مهما حاول التخفى والتنكر فكل شىء يمكن اكتشافه ، خصوصا لدى مخابرات بريطانيا . وأفهموه أنهم عرفوا حقيقته منذ أول لحظة صافحت فيها قدماه أرض لندن ، فهو الشيخ لعبوط ولا أحد سواه ! وحاول الرجل التخلص من هذه الورطة دون جدوى، فقد وقعوا معه معاهدة ، وتولى تأليف حكومة ، وقدم طلبا للجامعة العربية ، وأصدر بيانا مشتركا مع الشيخ فلحوط يدعو فيه إلى السلام العالمى والسلام الملكى والسلام الوطنى .. والسلام عليكم ورحمة الله !! ولقد ذاعت هذه المسلسلة وشاعت فى كل أرجاء الخليج . واعتبر كل شيخ أنه المقصود بهذه السخرية المرة . والواقع أننى لم أقصد أحدا معينا على الإطلاق ! والمنظر الذى رأيته فى العين خلال تلك الزيارة القصيرة ، التى مرت فى حياتى كالحلم ، كان حلما فظيعا كالكابوس ! .

ويبدو أن السماء قد استمعت إلى دعائى ، فقد أطاح **الشيخ زايد** بالشيخ شخبوط وتولى السلطة مكانه ، وقالت الناس : شيخ آخر جديد ! وماالذى يمكن

أن يفعله زايد فى هذه الرقعة الضيقة من الأرض ، وبين هذا العدد القليل من الناس ؟! ولكن ـ والحق أقول ـ زايد كان شيئا آخر مختلفا . ولقد اكتشفت السلطة الجديدة شيئاً لايمكن أن يصدقه عقل . ففى خزانة الشيخ شخبوط عثر الشيخ زايد على أوراق نقد ، كل ورقة تحمل رقم مليون دينار . وقد تم طبع هذه الأوراق فى بنك انجلترا ، وبطلب خاص من الشيخ شخبوط . وكانت هذه الأوراق هى ثمن بواكير النفط الذى بدأ يتدفق من أرض الإمارة ! ولم يكن شخبوط يعلم أن للنقود وظيفة سوى دفنها فى الخزائن ! وقيل إنه كان يفتح الخزينة المتخمة بملايين الدينارات ويهتف صائحا : « غرى غيرى » !! فقد كان يعتقد أيضا أن آبار البترول هى ملك خاص به ، وأنها هدية السماء له هو شخصيا ! أما شعب الإمارة ، أما شعب الإمارات ، أما شعب العرب ، فلكل فرد منهم رب يحميه !.

ولقد قدر لى أن أعود مرة أخرى إلى الخليج ، ولم تكن قوات بريطانيا قد تخلت عن قواعدها بعد . ولما كان حصول العربى العادى على تأشيرة دخول إلى الخليج شيئاً دونه ضرب الرقاب ، فما بالك بتأشيرة دخول للعبد لله ؟! ومن سجننى هناك دخل الجنة وعلى رأسه قنديل ، ومن قتلنى دخل الجنة وعلى رأسه قنديلان .... والله أعلم ؟! ولكنى استطعت ، بالرغم من كل شىء ، دخول الخليج ووضعت اسمى فى طلب تأشيرة دخول جماعية لفريق كرة قدم مصرى كان فى طريقه إلى لعب بعض المباريات مع أبناء الخليج . وضم الكشف أسماء أمهر لعيبة كرة القدم فى مصر : شحتة وأبو جريشة ورفعت الفناجيلى ومصطفى رياض والعربى ومحمود السعدنى .. وآخرين ! وهكذا عدت إلى إمارة أبوظبى صحفيا فى ملابس كرة القدم ! .

وفى الليل جاءنى المستشار الصحفى السابق للشيخ زايد ، رجاء مكاوى ، وقال : الشيخ زايد فى انتظارك . وتصورته لقاء عاصفا بين الشيخ الجديد والصحفى الذى هاجم أخاه . ولكنى اكتشفت ، بعد أول دقيقة من اللقاء أن كل ماتصورته كان وهما ، فها هو الشيخ زايد جالس على الأرض يحدق فى وجهى

طويلا ، ثم يقول : أنت هاجمت الشيخ شخبوط ، ولكن أنا خلعته ! وراح الشيخ زايد يتحدث عن أحلامه ، أو أوهامه ـ كما تصورت ! ها نحن الآن ـ والحديث لزايد ـ نضع أقدامنا على أول الطريق ، وسنبنى أبوظبى ، ليس من أجل أبوظبى ذاتها، ولكن من أجل قيام دولة واحدة كبرى من جميع إمارات الخليج، دولة تضم حتى البحرين وقطر وإمارات ساحل عمان المتصالحة . وجهودنا لن تتوقف عند هذا الحد ، بل ستكون هذه الدولة مجرد نواة لدولة الوحدة التى نحلم بها جميعا ، والتى تمتد من طنجة إلى صنعاء ، ومن كركوك إلى جوبا . وراح يتحدث عن أبوظبى التى يحلم بها ، أبوظبى المدارس والمساكن والشوارع والساحات والمستشفيات والجامعات والموانىء والمطارات . وشد الشيخ زايد على يدى ، وقال وهو يودعنى : أرجوك أن تعود إلينا بعد بضع سنوات ثم احكم لنا أو علينا . إننا سنعمل على مهل وفى تؤدة ، لأن المثل العربى يقول : « الحصان القوى يتأخر فى بداية السباق » . والمثل العربى يقول أيضا : « المليح يبطىء » ! .

ولقد جرى هذا اللقاء مع الشيخ زايد ذات مساء فى أواخر ١٩٦٧ . ولم يكن فى أبوظبى كلها فندق ، ولم يكن فيها معالم ، حتى مباراة كرة القدم التى جرت بين الفريق المصرى والفريق الظبيانى جرت على أرض خراب ! وقلت فى نفسى : كيف سيتمكن الشيخ زايد من تحقيق أحلامه مهما أوتى من حسن النية وعلو الهمة ؟ صحيح النوايا طيبة ، ولكن الواقع مر ! وصحيح الحصان الجيد يتأخر فى أول السباق ، ولكن أين هو السباق ؟!.

وكان الرجل الثانى الذى التقيته فى أبوظبى شابا عربيا حتى النخاع ، ذكرنى بهؤلاء الرجال الأوائل الذين قامت على أكتافهم دولة العرب فى الزمان الخالى . كان محدثى هو **أحمد خليفة السويدى** ، وكان يشغل منصب رئيس الديوان الأميرى . ولم يكن هناك ديوان بالمعنى المعروف ، ولكن بعض الموظفين وبعض الأوراق . وكان السويدى يحلم هو الآخر بدولة تمتد من البحرين إلى رأس الخيمة . وقال فى هدوء شديد وبلا أى انفعال : نستطيع أن

نقيم مثل هذه الدولة فى عهد زايد ، فهو من هذا الطراز من الرجال الذين ينظرون إلى بعيد ، وهو حاكم بالموهبة ووحدوى بالفطرة . وهو عربى من أصلاب عربية يحلم دائما بدولة العرب الكبرى حيث الراية الواحدة والجيش الواحد الذى يزحف فى كل اتجاه لتكون كلمة الله هى العليا . وكان هذا هو الجانب المشرق فى إمارة أبوظبى .

وعلى الناحية الأخرى ، كانت هناك جماعات أخرى مشغولة باغتراف كنوز الذهب التى لا تنضب ، ولسان حالها يردد : « هذا من نفط ربى » ! كانت بواكير الثراء قد ظهرت على البعض ، وجنون النفط يسرى فى الإمارة الصغيرة كالنار فى الهشيم . وكان على الشيخ زايد أن يقاتل فى كل الجبهات : الانجليز المستعمرين ، والوافدين الطامعين ، ونماذج من أهل البلاد تريد الاستئثار بالثروة والسلطة معا . ولكن شابا عربيا من فلسطين قال لى وهو يفرك يديه سرورا : سينتصر زايد فى النهاية . وكان الشاب الفلسطينى العربى يخطو خطواته الأولى على أرض أبوظبى ، وقد افتتح لنفسه مقهى على الشاطىء ، ونثر بعض المقاعد على الرمال، وبدأ يستقبل بعض الرواد فى أمسيات الصيف الخانق . قال لى (أبو طافش) : الشيخ زايد عربى أصيل ، ولذلك ستتحقق أحلامه . لقد جاء إلى هنا وجلس على هذا المقعد (وأشار إلى مقعد غير بعيد) ولما عرف أننى عربى من فلسطين، شجعنى بكلمات حلوة وبمبلغ من المال ، وقال لأفراد حاشيته : « عاونوه جميعكم وذللوا له العقبات ، إننى أريد للإمارة وجها عربيا حقيقيا ، وأى عربى هنا هذه بلاده . إن الخطة الجهنمية لأعدائنا هى تعريب الحكم وتدويل الشعب . ولكننا عازمون على تعريب الحكم والشعب معا » .

وقضيت أسبوعا فى إمارة أبوظبى انتقل بين كثبان الرمال والجرافات الضخمة تعمل بلا هوادة لتمهيد الأرض ، وأنوار المراكب التى ترسو بالقرب من الشاطىء - ولا أقول من الميناء ، فلم يكن ثمة ميناء بعد - تقيم مدينة كبرى داخل الخليج . وبعض العمال من بلاد بعيدة غريبة ينحنون على الأرض فى

عمل دائم ، وأموال كالماء تنساب على الرمل . ولما أبديت ملاحظة حول ضخامة الأموال التى تنفق ، همس مرافقى فى أذنى : هذا على أى حال خير من كنزها فى خزائن من الصلب .

لقد قدر للعبد لله أن يرى الحياة وهى تنشأ على أرض الإمارة . ولقد واصلت النشوء رغم العقبات والمعوقات والمؤامرات فى الداخل والخارج . وبالرغم من جندى الحدود الذى استوقفنى على بعد أربعين كيلو مترا من قصر الشيخ زايد ليفتح حقائبى ويتفحص جواز سفرى ويلقى على وجهى نظرة مريبة ، فقد كنت فى طريقى إلى إمارة دبى ، وهتفت من شدة الغيظ : « يارب الجنود ، متى تهلك هذه الحدود ؟ » .

• • •

ويبدو أن الله قد استجاب لدعائى ، فبعد سنوات قليلة انهارت الحدود والسدود بين الإمارات السبع، وكان ذلك فى مصلحة التجارة وحركة المال ، وصارت الطرق سالكة بين أبوظبى ودبى ، وعجمان وأم القوين ، والفجيرة ورأس الخيمة ، وبينها جميعا والشارقة . وصار زايد أميرا للدولة الجديدة ، وراشد بن مكتوم نائبا للرئيس ، وجميع الحكام أعضاء فى المجلس الأعلى الذى يحكم الدولة . وتسابق المهاجرون إلى الدولة الجديدة التى تحولت فى سنوات تعد على أصابع اليد إلىواحدة من أهم الدول العربية. وصار الشيخ زايد حاكما محبوبا لدى الجماهير العربية ، فهو لم يشترك فى أى مشاكل عربية ، وهو دائما حاضر معهم بالمدد فى حروبهم ، وبشخصه فى مشاكلهم . وانشقت الأرض فى دولة الإمارات عن ثلاث مدن جميلة : أبوظبى ودبى والشارقة . وامتدت الحدائق واتسعت ، وصارت أبوظبى - للعجب - أكثر اخضرارا من تونس الخضراء . وعندما زرتها آخر مرة فى عام ١٩٨٥ وقفت مبهورا لأصدق ما أرى ، لقد صارت الأرض المهجورة أجمل مدينة على إتساع الوطنى العربى !! .

ولكن مأساتنا نحن العرب أننا نبدأ المشاوير ، ثم ينتابنا الملل فنتوقف ، مشروع الوحدة فى دولة الإمارات ، صار وحدة فى (الشكل) أكثر منها وحدة

فى (المضمون) ، وتضخمت المشاكل بسبب أطماع الحكام وضيق أفق بعض المسئولين وشراهة بعض المستفيدين ، فتوقف الاتحاد عند فتح الحدود وتوحيد مناهج التعليم ، وفيما عدا ذلك ، فكل إمارة لها جيشها الخاص وإعلامها المستقل !.

وفى أبوظبى مثلا تليفزيون ومحطة إذاعة ، وفى دبى تليفزيون ومحطة إذاعة ، والشارقة تستعد لافتتاح محطة تليفزيون ، مع أن المسافة بينها وبين دبى ، كالمسافة بين مهبط الطائرات فى أى مطار وموظف الجمارك ! وأشهد أن الصحافة فى الإمارات متقدمة ، وتعتبر من أنشط الصحف العربية ، ولكن فى أبوظبى أربع جرائد يومية وسبع مجلات أسبوعية ، وفى دبى جريدة يومية ، وفى الشارقة جريدة يومية ، مع أن عدد القراء فى الإمارات لايزيد على خمسين ألف قارىء فى عموم دولة الاتحاد ! ولهذا السبب أهدرت أموال كثيرة ، وتبددت جهود ضخمة .

وحتى الأسعار اختلفت من إمارة إلى أخرى ، وفى بعض الأحيان وصل إيجار الشقة فى أبوظبى مائة ألف درهم فى العام ، ووصل إيجارها فى دبى ستين ألف درهم ، وفى الشارقة وصل إيجار الشقة ثلاثين ألف درهم ، وتستطيع أن تستأجر نفس الشقة فى عجمان بعشرة آلاف درهم ... لاتزيد ! ولكن يبقى الشيخ زايد وسط هذا الهم كله متمسكا بالاتحاد ، حريصا عليه ، إلى درجة أن أغلب ميزانية الاتحاد من جيبه الخاص . وبالرغم من المتاعب والمشاكل فى دولة الاتحاد ، إلا أنه سعيد الحظ من العرب من يقيم فى دولة الاتحاد ، وأسعد منه من يزورها فى الشتاء ! .

وإذا كان عمنا ابن خلدون قد التفت إلى ملاحظة هامة للغاية فى مقدمته الشهيرة ، عندما قال : « وآفة العرب حب الرئاسة »، فإن هذه الملاحظة الذكية ستجد لها تطبيقا عمليا على أرض دولة اتحاد الامارات . وثبت أننا نحن العرب لانستطيع أن نتوحد حتى فى رقعة من الصحراء ليس فيها إلا سبع مدن جميلة وشعب طيب !●

الأرض يتكلم .. هندى !

هناك نكتة مشهورة، وهى أن حكومة أجنبية أرسلت أحد رجالها فى بعثة لدراسة اللغة العربية، قبل تعيينه ممثلاً لها فى إمارة دبى. وبعدما استكمل تعليمه، وأتقن اللغة العربية، سافر إلى دبى، وبعد أسبوع من إقامته هناك ، أرسل برقية هذا نصها: لقد حدث خطأ ما، لا أحد هنا يتكلم العربية إلا الحاكم! وهذه النكتة صحيحة رغم كل شىء. فعندما دخلت دبى من الناحية الغربية، تصورت أننى فى أصفهان. وعندما دخلت قسمها الشرقى تصورت أننى فى مدينة من مدن الهند. وعليك لكى تتفاهم فى دبى أن تتقن الهندية أو الفارسية. أما العربية فستحتاج إليها إذا كنت ستقابل الأمير.

ولقد فوجئت حقاً لحظة دخولى دبى. فهذه مدينة حقيقية، فيها مظاهر عمران، وتقدم كل الخدمات. وهى شديدة الشبه ببيروت فى الخمسينيات. وفيها إدارة ذكية وحازمة ونشطة. وليس فى الإمارة نفط، ولكنها استغنت عن النفط بنظام تجارى مفتوح يسمح بالتهريب والتهليب، ولكن وفقاً لخطة موضوعة.

وتستطيع أن تشترى فى دبى كل شيء، الذهب والسلاح والحشيش وجواز السفر. فلا شيء هنا ممنوع مادمت تدفع الثمن، وما دام التاجر يدفع النسبة المطلوبة. الشيء الممنوع هنا، هو أن تكون نصاباً أو شحاتاً، أو جيوبك خالية من النقود. وميناء دبى الذى يبعد بضع ساعات عن ميناء بندر عباس، مفتوح كأبواب جهنم لاستقبال ألوف الوافدين من كل مكان، من إيران والهند وإفريقيا وباكستان.

وستجد فى دبى قرى هندية بأكملها، وستجد أحياء إيرانية بأكملها، وأسواقاً كاملة ليس فيها سوى صنف البلوش! ولكن أخطر من ذلك أن أغلب الذين يرتدون الدشداشة والعقال ويتاجرون بالملايين ويتكلمون العربية بفصاحة، هم فى الأصل ليسوا عرباً، وليس فيهم من العروبة إلا الزى واللسان، وهؤلاء يحاربون أى محاولة للوحدة، ويقفون فى وجه أى خطوة نحو التقارب الحقيقى بين الإمارات. إن التمزق هو ضمان بقائهم الوحيد، وأى وحدة حقيقية فيها تهديد مباشر لمصالحهم، وهى بداية النهاية بالنسبة إلى وضعهم المميز والفريد.

ذات يوم ذهب صحفى عربى يعمل فى جريدة تصدر فى إمارة قريبة، والتقى بمسئول كبير فى دبى، وعندما وجه إليه سؤالاً محرجاً، نظر المسئول إلى الحراس، فقاموا بجر الصحفى من رجله إلى الشارع، وتركوه فى وحل الطريق بلا سؤال ولا كلام!.

وذات مرة هبط الإمارة شاعر أرزقى مغمور من لبنان، وطلب مقابلة مسئول كبير. وعندما جلس الضيف أمام المسئول، فتح حقيبته الأنيقة، وأخرج منها قصيدة عصماء فى مدح صفات المسئول وكرمه وعظيم أخلاقه، فما كان من المسئول إلا أن انتزع القصيدة من يدى الشاعر ومزقها، وقال له: ظننت أن معك مشروعاً تجارياً تريد أن تبحث تفاصيله معى، أما والأمر كذلك، فأنت محبوس حتى تغادر هذه البلاد! فالقاعدة فى دبى.. التجارة أولاً ثم الصحافة والشعر والفن والكلام الفارغ!.

كانت تلك هى الحال فى دبى عام ١٩٦٧ حين صافحت قدماى أرضها أول مرة، ولكن.. لأن قوانين الطبيعة لا تخطىء، ولأن كل فعل له رد فعل مساو له فى القوة ومضاد له فى الاتجاه، فقد التقيت بحركة ثورية فى دبى.. تصوروا حركة ثورية؟! وهى حركة ثورية حقيقية عمادها بعض الشباب العرب، وهى تشارك مشاركة فعلية فى الأحداث، ولها صوت مسموع رغم أنها تعمل فى الخفاء، وتركز همها على قيام دولة الاتحاد.

وقال لى أحد زعماء الحركة العربية الثورية فى دبى: إننا نعمل هنا على أرض صلبة، فكل العرب فى هذه الإمارة معنا، صحيح أنهم أقلية، ولكنهم الرأى العام! أما الأغلبية الأجنبية فهى ليست معنا، كما أنها ليست ضدنا، لأنها تعمل فى واد آخر معزول. أما الأعداء الحقيقيون، فهم الأجانب الذين استعربوا، وهؤلاء ليسوا ضدنا نحن فقط، ولكنهم ضد العرب بوجه عام وضد أى اتحاد بين الإمارات، كما أنهم ضد أى اتصال بالوطن العربي! وقال لى الشاب العربى الثائر ونحن نجلس ذات مساء على شاطىء الخليج: تصور، لقد فتشوا أمتعتك وأنت فى طريقك إلينا من إمارة أبوظبى، وسيفتشونك مرة أخرى وأنت فى طريقك من هنا إلى إمارة الشارقة، رغم أن بيننا وبين الشارقة خمسة عشر كيلو متراً لا تزيد. وسيفتشونك بعد ذلك بين كل إمارة وأخرى رغم أن عجمان تبعد عن الشارقة ثلاثة كيلو مترات! هل يتصور أحد أن وضعاً مثل هذا يمكن أن يستمر؟ ولذلك فنحن واثقون من النجاح رغم الصعوبات والأخطار..

• • •

ولقد خرجت من دولة دبى، أو إمارة دبى إلى دولة الشارقة على مرمى حجر.. تصوروا؟! وعلى الحدود راية مختلفة، وعساكر شرطة، ورجال جمارك، مع أن الجميع يتكلمون العربية ويدينون بالواحد القهار، ويؤمنون بالعروبة، ويهتفون للوحدة اللى ما يغلبها غلاب! والحق أقول إن معاملة عساكر الشارقة كانت ودية، والناس فى الشارقة أكثر طيبة، لأنهم أقل اشتغالا

وانشغالا بالمكاسب والتهليب والتجارة.

كانت الشارقة لحظة دخلتها قرية متواضعة، وأحوال سكانها أكثر تواضعاً من القرية، وأميرها **الشيخ خالد** أكثر تواضعاً من القرية ومن الناس. ورغم كل شيء كانت الشارقة نقطة مضيئة فى بحر السواد الشامل، فأغلب أهلها تلقوا قدراً متفاوتاً من التعليم. والبنت الشارقية لا تختفى فى عباءة، وهى تذهب إلى المدرسة وتعمل أحياناً، وهى تقرأ وتكتب فى جميع الأحوال. ولم يكن فى الشارقة أحد من صنف الهنود أو الفرس، وكان بعض أبنائها يحاولون العمل فى الصحافة، ولكن فى الكويت، وكان أشهر هؤلاء **تريام عمران** وشقيقه.

ولكن الذى أسعدنى فى الشارقة هو وجود زراعة هناك، وهم يزرعون بعض الخضروات لتكفيهم ذل انتظار ما تأتى به السيارات من خارج الحدود، وهذه السيارات قد تأتى أحياناً ولكنها غالباً لا تأتى.

ولقد عشت فى الشارقة ثلاثة أيام ونزلت فى قصر كان يطل على البحر، ونمت فى الحجرة ذاتها، التى نام فيها جلالة الملك حسين. ودخلت القاعدة البريطانية التى كانت مصدر الرزق لأغلب السكان، ثم قررت بعدها ألا أتقدم خطوة أخرى على ساحل عمان، وأن أكتفى بهذا القدر، وأن أعود أدراجى.. وكفى الله المؤمنين شر التجوال! وتعجبت وقتئذ كيف تدهورت الأحوال فى هذه الإمارات إلى هذا الحد الرهيب؟! وكيف تحول أشهر بحارة العرب، وأشهر صيادى اللؤلؤ إلى مجرد مخلوقات تعيش على ما يجود به المستعمر من مساعدات؟! وخرجت بنتيجة غريبة، إنه الحظ السيئ والظروف التعيسة، وبعض المشايخ الذين عقدوا المعاهدات مع حكومة بريطانيا، ونصوا فيها على أنها سارية المفعول (حتى يشيب الغراب)! أما **الحظ السيىء**، فهو وقوع الإمارات فى طريق الهند، وكانت بريطانيا الإمبراطورية مستعدة للتفريط فى كل شيء إلا طريق الهند.

أما **الظروف التعيسة**، فهى خلو البلاد من أى مصدر للرزق. فلم يكن النفط قد تفجر من الأرض بعد، والزراعة نادرة كأنها مشاتل للتجارب، أكثر

منها مزارع للاستغلال، وأكثر السكان رحلوا إلى السعودية، وإلى الكويت، وإلى قطر، وبعضهم ذهب بعيداً إلى عمان وإلى الهند.

وأما **بعض المشايخ**، فقد كانوا مجرد موظفين فى معسكرات الانجليز، وكانت مهمتهم تنحصر فى تأديب المخالفين والتفاهم مع السكان وإبلاغهم تعليمات الانجليز والفصل فى المنازعات بين القبائل، وحضور قعدات الشاى والبخور فى الليل، وتربية الصقور لزوم الفشخرة والقنص.

وبلغ تدهور الأحوال حداً جعل نشرة الأخبار فى إذاعة المعسكر الإنجليزى يتصدرها خبر وصول سيارة الشحن رقم كذا من إمارة أبوظبى مثلا إلى إمارة دبى، ويعلن المذيع فى صوت وقور أن شاحنة وصلت بأمان الله وعليها شحنتها كاملة! ذلك لأن الطرق لم تكن طرقاً بالمعنى المعروف، ولكنها كانت مدقات فى رمال الصحراء. وإذا نجت السيارة من الرمال خطفها قطاع الطرق، فإن نجت من قطاع الطرق فلن تنج من قطعان الذئاب الجائعة أو السيول المدمرة. ولذلك فوصول الشاحنة يعتبر خبراً يستحق أن يتصدر نشرة الأخبار. ولم تكن هذه إذاعات بالمعنى المعروف الآن، ولكن كانت توجد فى كل معسكر انجليزى محطة إذاعة خاصة به، وكان يذيع نشرات الأخبار باللغة الانجليزية وموسيقى راقصة وبعض الأوامر والتعليمات، ثم كان يخصص ساعة واحدة كل مساء لإذاعة برنامج باللغة العربية لسكان الإمارة.

أين ذلك كله مما يحدث الآن هناك؟ وفى دولة الإمارات الآن ست محطات إذاعة كل منها قادرة على تغطية المنطقة العربية كلها، وست محطات تليفزيون ملونة، وثلاث محطات للأقمار الصناعية. لدرجة أن إمارة رأس الخيمة تستطيع الاتصال مباشرة هاتفياً بأى ركن على سطح الأرض، مع أن عدد أجهزة الهاتف فيها لا يزيد على ألف جهاز، كما أن عدد سكانها لا يزيدون على خمسة عشر ألف نسمة، وكان فى استطاعتهم أن يتنادوا عبر النوافذ! ولكن سبحان مغير الأحوال، من الضنك الشديد إلى الإسراف الشديد، ومن الفرجة على خيال الظل مرة كل عيد إلى مشاهدة المباريات الهامة

والاستعراضات العالمية حية وعلى الهواء.

ولكن أغرب شيء وأخطر شيء هو وجود **خلية من الشباب** اجتمعت بهم فى الشارقة ذات مساء، شباب فى عمر الورد يعملون فى السر وفى صمت، ويؤمنون بالقومية وبعبد الناصر وبالوحدة من الخليج إلى المحيط. ولست أذكر الأسماء الآن، فقد أصبح بعضهم وزراء ومسئولين فى الدولة الجديدة، وقد غير بعضهم مواقعه وتلاءم مع الوضع الجديد.. أو تلاءم عليه، وبعضهم صار مليونيراً يربح عشرات الألوف من مكالمة تليفونية، وينفق عشرات الألوف فى سهرة واحدة.. حمراء أم زرقاء ! .

ولقد كانت الوحدة بين الإمارات حلماً فصارت حقيقة، وإن كانت حقيقة مشوهة، إلا أنها حقيقة واقعة على كل حال. واستطاعت رغم كل شيء أن تقدم بعض الإنجازات. فلم تعد الإذاعة تذيع نبأ وصول الشاحنة رقم كذا، لأن طابور الشاحنات لا ينقطع ليل نهار على الطرق الحديثة التى تربط الإمارات. وأزيز الطائرات لا ينقطع لحظة فى جو الإمارات، وصوت الإذاعات لا يتوقف، وصور التليفزيونات لا تختفى.

لقد هبت الحياة فجأة واقفة على قدم وساق فى ساحل عمان الميت، وبدأت الوحدة زحفها، ولن يستطيع أحد وقفها، لأنه لم يخلق بعد هذا الذى يستطيع أن يعيد عقارب الساعة إلى الوراء.

وقبل أن أغادر الإمارات، صرخت من أعماقى: «يا كاشف الغمة.. ساعد أصحاب الهمة..!».

فجاءة الذى.. فجأة !

وإذا كنت قد اكتشفت جديدا فى ساحل عمان .. فقد فشلت فى اكتشاف أى شيء جديد أو قديم فى قطر . كانت قطر هى آخر قرية كبيرة. وبدلا من المعسكر كانت هناك شركة النفط . ثم عشرات من التجار الأقوياء. وإن كان أغلبهم من أصول غير عربية .

وإذا كان أهل الإمارات يمتازون بالدماثة والسماحة والدهاء الشديد ، فالقطرى جاف الطبع وحاد المزاج . وهو فخور بتاريخه القديم بمناسبة ومن غير مناسبة . كان القطرى يفخر بأنه من نسل **قطرى بن الفجاءة** . وتسأل عن أمجاد القطرى . ويكون الجواب أنه من قطر . وأنه كان فى رحلة إلى بلاد اليمن . ثم جاء فجأة إلى قطر ، فسمى فجاءة ! .

والمثقف القطرى يفخر أيضا بأن حركة **القرامطة** ظهرت بوادرها الأولى فى قطر . وإن كان هناك قول آخر للتاريخ بأن الحركة ظهرت فى البحرين ، إلا

أن القطرى المثقف يسوق لك ألف دليل على أنها هبت من قطر ، وأن **ابن قرمط** كان قطريا يحمل الجنسية القطرية . وربما استبدت الحماسة بالمثقف القطرى ، فأكد لك أنه كان يعمل فى شركة النفط فى قطر .

وقد شهدت قطر فى الخمسينيات والستينيات دعوات تنادى بعدم تدريس تاريخ مصر والعراق وسوريا وغيرها لطلبة قطر ، والاكتفاء بتدريس تاريخ قطر . وعدم تدريس جغرافية الوطن العربى ، والاكتفاء بتدريس جغرافية الخليج . ولكن حظ قطر الحسن أنها نجحت فى التغلب على هذه الدعوات . وربما يمكن القول الآن - وفى منتهى الأمانة- بأن نظام التعليم فى قطر يعتبر من أرقى نظم التعليم فى الوطن العربى . وكان ذلك بفضل وزير التعليم السابق ، وأيضا بفضل عربى من مصر اسمه (كمال ناجى) .

وسيبقى لقطر فضل على منطقة الخليج - بعد الكويت بالطبع - أنها كانت كعبة كل المهاجرين من إمارات ساحل عمان ، ففيها شركة للنفط ، وفيها حركة تجارية نشيطة . وأسباب العيش متوافرة إلى حد كبير . كما أنها كانت مقصدا لطلاب العلم . **فأحمد خليفة السويدى** مثلا ، أقام وتعلم وعمل فى قطر فترة طويلة من الزمان ، قبل أن يعود إلى مسقط رأسه فى أبوظبى . **وعلى الشرفا** أيضا ، وعشرات من المسئولين فى دولة الإمارات . حدثنى رئيس تحرير مجلة أسبوعية فى أبوظبى ، أنه عاش فترة من صباه وشبابه فى قطر ، وأنه كان يعمل (بوى) فى شركة النفط . و(بوى) تعنى فرّاش بالعربى الفصيح . وقال لى مدير بنك فى دولة الإمارات : إنه عندما اشتد الجدب والجفاف فى ساحل عمان ، هاجرت الأسرة فى زورق شراعى من الخليج إلى قطر . ولكن الرياح كانت عاصفة ، والبحر كان أكثر هياجا . فانقلب الزورق وأشرفت العائلة على الهلاك . ولكنهم تمكنوا من النجاة بمعجزة بعدما فقدوا واحدة من بنات الأسرة . وفى النهاية استطاعوا الوصول إلى قطر حيث عمل رب الأسرة فى البنك ، وعمل أبناؤه فى مهن شتى. واستطاعوا مواصلة الحياة حتى عادوا مرة أخرى إلى الإمارات . ولكن الحال كانت قد تغيرت والدنيا كانت قد تبدلت (رفع

سماعة التليفون خلال الحديث ليبلغ عميلا له فى لندن بموافقته على صفقة بعشرين مليون درهم) .

وفى خلال زيارتى الأولى لقطر ، اجتمعت مع الأمير السابق لمدة نصف ساعة ، لم نتبادل فيها كلمة واحدة . ولكنى تناولت خلالها الشاى مرتين والقهوة مرة واحدة ، وشميت البخور فى نهاية (الحديث) . كان منطويا على نفسه ، ومرتابا فى كل الناس ، وكان يقضى فى قطر شهرين طوال العام، وفى القنص شهرين ، وفى الاستجمام من عناء القنص شهرين ، وباقى شهور السنة يقضيها فى قصره على شاطىء الخليج فى دبى ..

وقد حضرت مباراة كرة قدم حدد موعدها فى الرابعة بعد الظهر . ولكنها لم تبدأ إلا فى السادسة ، بسبب عدم وصول الأمير الذى أقيمت المباراة تحت رعايته . وعندما وصل الأمير وعزفت الموسيقى السلام الأميرى ، لم أتمالك نفسى من الضحك ! فقد كان الأمير طفلا فى الخامسة من عمره . وقف يصفق ويصرخ أثناء عزف النشيد. وبالطبع دارت المباراة فى الظلام ، وانتهت بانتصار فريق قطر . مع أنه كان يلعب فى قطر مع بطل أندية إفريقيا . ولكن فى ذلك الزمان ، لم يكن أحد يستطيع أن يلعب فى قطر ويفوز . ولو كان الفريق الزائر مكونا من أحد عشر (بيليه) . وعندما عاتبت الحكم الذى أدار المباراة لسوء تحكيمه ولجهله بقواعد اللعبة ، رمقنى بنظرة ذات مغزى ، وقال لى فى حكمة غريبة : « لسنا هنا فى كأس العالم . المهم أن تنتهى المباراة فى سلام ، وأن نجلب السعادة إلى قلوب الحاضرين » .

ولكن موقفا عظيما يذكر لقطر ، وهو ندرة العنصر الأجنبى على أراضيها ، ووفرة العنصر العربى . وهى ليست مسألة عشوائية ، ولكنها جاءت نتيجة تخطيط سليم ، وربما نظرة قومية من أعلى . وبالرغم من أنها لاتزيد فى المساحة والسكان عن بنها فى مصر ، أو حمص فى الشام ، أو الحلة فى العراق ، إلا أنك ستجد فيها محطة إذاعة ولا محطة (صوت أمريكا)

وتليفزيون ملون . ومدينة رياضية. وحفنة صحف ومجلات . ومصنعا للحديد والصلب .

• • •

سألت جاري فى الطائرة - وهو انجليزى من لندن - عن المسافة بين قطر والبحرين . فأجابنى بأن المسافة بينهما هى نصف قرن بالتمام والكمال ! والذى قاله الرجل الانجليزى الخبير هو الواقع . ففى البحرين حضارة وتاريخ ومجتمع ، وفيها حكومة قوية عفية كحكومة قطر . ولكن فيها أيضا حركة ثورية ، أحيانا فوق الأرض ، ودائما تحت الأرض . وصوت الناس له زئير فى البحرين . أحيانا يشتد كزئير أسد جائع فى غابات كاتنجا ، وأحيانا يلين كزئير أسد أفلام مترو . ولكنك ستستمع الى الزئير فى كل مرة تطأ فيها قدماك أرض البحرين . وناس البحرين أذكياء ، وهم أشطر تجار الوطن العربى ، وأعلم أهل الخليج . ومنهم الفنانون والممثلون والراقصات .

وأشهر مطرب فى الخليج بحرينى اسمه **محمد زويد**. استمعت إليه فى جلسة خاصة ، وأشفقت عليه . فقد كان يغنى بقطرات الدم المتبقية فى عروقه ، وبخفقات قلبه الذى أصابه الوهن بفعل السنين الطويلة . فقد كان الرجل يزحف نحو الثمانين ، وقد شرب ليلتها حتى ثمل ، وجلس على الأرض وراح يدندن على العود ، ويحاول أن يستخرج صوتا من داخل تلافيف تجاويف صدره ، يهتز وهو يغنى كعصفور أصابه البلل ، ويرتعش كقطة تلد فى زمهرير الشتاء . ولكن صوت محمد زويد ، بالرغم من كل شيء كان قويا ودافئا وصادقا . وقد سرحت مع صوته إلى سحيق الماضى ، وطويت القرون القهقرى إلى صدر الإسلام . إلى شعاب مكة وجنات المدينة ، وإلى معبد وابن سريج . وكان محمد زويد يغنى الكلمات نفسها التى غناها كل منهما فى أرض الحجاز ، كلمات الشاعر الشقى عُمر بن أبى ربيعة ، والألحان ، لعلها هى نفسها ، والجو هو نفسه .

وما الفرق بين العوالى فى البحرين والحفائر فى مكة ؟ وما الفرق بين المنامة فى البحرين ومرج ابن سعد فى المدينة ؟ وما الفرق بين معبد والزويد ؟ ثم ما الفرق بين جمهور المستمعين فى المدينة زمان وبيننا نحن الذين اجتمعنا تلك الليلة نستمع إلى محمد زويد فى البحرين ؟ لعل الفرق الوحيد هنا ، أننا كنا ليلتها مجموعة عرب نحمل أكثر من جنسية . (أبو فيصل) من الكويت ، و (الدرويش) من قطر ، و (فخرو) من البحرين ، وآخر لا أعرف اسمه من اليمن ، وأنا من مصر . وكنا مهزومين . فقد كانت حرب الأيام الستة تلملم أذيالها . وكان بعضنا يحاول أن ينسي . وبعضنا يحاول أن يشمت . ولكن الهزيمة كانت تطحننا جميعا ، والعار يرفرف على رؤوسنا كلنا ، والخزى هو طابع الجميع .

ما أبعد الفارق بيننا وبين سميعة زمان .. فى الزمان ، وفى واقع الحال . كانوا - عكسنا - يحتفلون بالنصر ، وكانت جيوشهم تزرع أعلامها فى أرض الروم والفرس ، وكانت لهم دولة واحدة وجواز سفر واحد ، وكان موتاهم شهداء ، وأحياؤهم سادة . وكانت لياليهم ليالى الملاح والأفراح ، بينما ليالينا هى الهستيريا والعصبية والارتداد إلى داخل النفس ولعق الجراح . تبدلت الأمور والأحوال ياولداه ، وتقطعت الأوصال والصلات . لم يبق فينا من السلف الصالح إلا كلمات ابن أبى ربيعة . وهى ظاهرة صحية على أية حال ، ثم هى ظاهرة فريدة ليس لها مثيل فى أى مكان . فليس هناك شعب يغنى أغنية عمرها ألف وأربعمائة عام إلا شعب العرب . حضارة متصلة تضرب جذورها فى بطن التاريخ الى غور بعيد ، كشجرة الجميز الطيبة التى تضرب جذورها فى الأرض إلى عمق عميق . وا أسفاه ! الجذور طيبة ، والأفرع سامقة ، ولكن الأوراق ذابلة ، والثمار بعضها فاسد ، وبعضها أصابه العطب والعطن .

ولكن ها هى البحرين ، على أى حال ، تحاول أن تصل الحاضر بالماضى . وهى بالفعل تعيش فى الماضى وفى الحاضر وفى المستقبل ! وها نحن ومعنا سيدات والمينى جيب فوق الركبة، وأحيانا فوق الرقبة . والإختلاط مباح .

والمرأة لها فى البحرين وجود ، والناس بالانجليزية ترطن وبالفرنسية تتلاعب ، والتجار شطار ، ولكن بشرف .

وإن كنت محظوظا لأنى التقيت بالصديق **صالح شهاب** فى البحرين . وصالح هو وكيل وزارة الإعلام فى الكويت ، ولكنه فى البحرين أشهر من سبع كوبرى قصر النيل فى القاهرة . ولو يرشح صالح نفسه فى البحرين لصار نائبا عن عموم الأمة . والسبب أنه درس أيام الشباب فى البحرين . ولذلك فهو معروف على مستوى الحكومة ، وعلى مستوى السوق ، وعلى مستوى المتسولين الذين يحيطون بالمساجد .

ومن خلال **أبو فيصل** ، دخلت البحرين المخملية ، ورأيت البحرين المرتاحة ، وعشت مع البحرين الممتلئة الثرية . ولكن بحرين النوادى والثورة والطلبة ، أنا رأيتها بنفسى ، ودخلتها بمعرفتى . وقد بهرنى مارأيت وهزنى ماشاهدت . شباب كالورد يحلم ببحرين عربية، وببحرين قوية ، وببحرين مركز إشعاع ، تؤثر فى شبه الجزيرة ولا تتأثر ، وتصوغ مستقبل المنطقة وتلعب فيها دور الضمير والفؤاد .

والحق أقول إن الفرصة كانت مواتية والظروف كانت مناسبة . والبحرين الصغيرة كانت تموج بالأفكار والآراء ، وتضطرب بالحياة والأحياء ، وكان فيها أكثر من رأى ، وأكثر من صوت ، بينما كل شىء حولها كان مجرد صحراء تمتد عشرات الألوف من الأميال كعملاق فارقته الروح . وفى المواجهة تقف إيران تتربص وتتلمظ .

البحرين الصغيرة كانت واحة شبه الجزيرة ، و (باريس صحراء العرب) ، ومرفأ بحر الظلمات الذى ليس له شواطىء .

• • •

ولكن البحرين التى عرفتها لم تستمر ، حاصرتها مشاكل المنطقة وتغلبت

عليها فى النهاية وفرضت عليها قوانينها ! ومأساة البحرين تحتاج إلى شاعر عظيم كالمتنبى يخلدها على طول الزمان ، وتحتاج إلى أكثر من مطرب يشدو بها فى السهرات ، ويسرح بها فى الأسواق . وقد يسأل سائل : وماهى مأساة البحرين ؟ وهل حدث لها مكروه لا قدر الله ؟ والجواب كما سبق وأن قلت : إن البحرين كانت واحة شبه الجزيرة ، وكانت حديقة الخليج ، وكانت بمثابة الرئة التى تتنفس منها صحراء العرب المحرقة. وكان عشمنا فى الله كبيرا ، أن تتسع دائرة الضوء التى تشع من البحرين لتشمل الخليج كله . ولكن الذى حدث كان عكس ماتوقعناه ، وأصبح النظام فى البحرين جزءا من النظام فى الخليج ، وإن كانت لا تزال تتميز بأن العنصر الأجنبى فيها نادر للغاية ، وبأن الأمن فيها أحكم من الأمن عند جيرانها ، كما أن الجسر الذى ربطها بالسعودية جعلها فى مأمن إلى الأبد من أطماع الجالس على عرش فارس ، سواء كان يدعى الشاه أو يتلقب بالإمام . ومع ذلك أرجو أن تعود البحرين إلى سالف عهدها القديم ، حيث كانت ممرا ومقرا للأفكار الحرة وللفن العظيم .

وإذا كان الحديث عن البحرين ، فلابد أن نذكر بالخير حاكم البحرين . أطيب الحكام العرب الذين عرفتهم والذين لم أعرفهم ، وإن كان أفقرهم . ولكن مأأشد غناه فى السماحة واللطف وحرارة الاستقبال . ولابد أن نذكر أيضا كوكبة الشباب المثقف الذى يشترك فى توجيه دفة السفينة التى تقف الآن فى مواجهة أطماع إيران ، وترفع راية العروبة فى وجه التحديات والمؤامرات .

وهتفت وأنا أغادر البحرين فى آخر زيارة لها : « يارب ، احفظ بإرادتك القاهرة أرض البحرين الطاهرة » .

أك سوارى إلوانى!

ومن البحرين عبرت أنا الخليج، وعبرت السعودية، وعبرت البحر الأحمر، وحططت الرحال فى السودان. وإذا كان شعب البحرين يسيل رقة، فالرقة نفسها هى شعب السودان. فأنت فى الخرطوم مثلاً تستطيع أن تنام مفتوح الأبواب، ولن يجرؤ أحد أن يمس طعامك أو متاعك:

والحزب الشيوعى السودانى مثلاً يصرخ بالحناجر طوال النهار ضد حزب الأمة، وحزب الأمة يشهر الخناجر طوال النهار ضد الحزب الشيوعى، والحزب الوطنى يستنكر أعمال الطرفين. ولكن الجميع سيجتمعون فى الليل حول مائدة العشاء، وسيشربون جميعاً من نهر الويسكى الذى يجرى تحت الأقدام. ولما أبديت إعجابى بهذه الظاهرة، همس أحدهم فى أذنى.. هذه هى الطريقة السودانية. فالخصام لا يتحول فى السودان إلى كراهية، والخلاف لا يتحول إلى حقد، والنقاش لا يتحول إلى شجار، والشجار لا يتحول إلى معركة، والكل أصدقاء وأحبة.

والرجل فى السودان اسمه (زول) والمرأة اسمها (حبوبة)، وكل شىء فى السودان فسيح وعريض وممتد: الأرض الزراعية بلا حدود، والغابات تسد عين الشمس، والأنهار تجرى بإذن ربى، وبينها قنوات وروافد، والخير على قفا من يشيل، والسعى على المهل، والرزق مضمون عند السماء الصافية، والدنيا حظوظ.. ومزاجات!.

هكذا كانت الأحوال عندما هبطت السودان أول مرة. وشعرت منذ أول لحظة أنى رأيت هذا المكان من قبل. ولقد حدث لى فى السودان حادث لم يحدث لى مثله من قبل، ولم يحدث لى بعد ذلك قط. جلست على رصيف فى أم درمان مع مجموعة من الأصدقاء، كان بينهم سبت دودو حارس مرمى السودان الشهير وأعظم حراس المرمى فى إفريقيا يوماً ما، و(سبت دودو) معناها بالعربى أسد يوم السبت. وقد امتدت السهرة بنا وطالت، وكنا قد أكلنا فولاً وبصلاً وكسرة وشرموت . وفجأة استأذنت ، وبعد أن صافحت الجميع ، انصرفت مسرعاً لا ألوى على شىء. ولم يسألنى أحد منهم إلى أين أنت ذاهب؟ فقد كان من المفروض أن أسهر معهم إلى أى وقت، فإذا رغبت فى العودة إلى (الجراند أوتيل)، ذهبت فى سيارة أحدهم. المهم أننى استأذنت فجأة، وانصرفت على عجل، ووقفت على بعد عشرة أمتار منهم بجوار ما تصورت أنه محطة أتوبيس. لماذا؟ لأننى ألغيت تماماً مسألة وجودى بالسودان، وتصورت نفسى على رصيف فى حى عابدين! وما دامت الساعة قد أصبحت الثانية صباحاً، فلابد من عودتى إلى الجيزة قبل أن تتوقف وسائل المواصلات. ولكنى عدت إلى رشدى بعد دقائق، واكتشفت أننى على بعد آلاف الكيلو مترات من القاهرة، وأن الرصيف الذى كنت أجلس عليه منذ خمس دقائق، هو فى أم درمان وليس فى عابدين! وعندما عدت أدراجى إلى شلة الأصدقاء السودانيين انفجروا ضاحكين، فقد اكتشفوا ما حدث للعبد لله من تداخل فى الزمان والمكان.

إلى هذا الحد أنسى نفسى فى السودان؟! نعم. وأنا مثلاً وقفت عند المجرن،

حيث يلتقى النيل الأزرق والنيل الأبيض ليخرج من عناقهما الخالد نهر النيل العظيم، يتدفق مخضوضراً معشوشبا نحو الشمال. أنا وقفت هناك ذات أصيل، وإذا بى أشم رائحة الأرض فى المنوفية. عند الشجرة، أنا تصورت نفسى عند القناطر الخيرية! أنا فى قرية الكدرو تصورت نفسى فى قرية بهناى فى المنوفية، أو فى قرية العزيزية بالجيزة، أو فى ميت يعيش فى الدقهلية! الجو هو نفسه، والطين نفسه والرائحة نفسها. وكل شىء هناك له مثيل هنا، حتى الشجر والحجر والبنى آدمين!.

يا ميت حلاوة على السودانى الأصيل، إذا سكر فهو الشراب ذاته، وإذا ضحك فهو الفرحة نفسها، وإذا بادلك الصفاء والود، فلا صفاء ولا ود بعد ذلك. ولكن احذر السودانى إذا غضب، وهو لا يغضب إلا للشديد القوى. وكما أن فى كل جماعة الطيب والخبيث، والصالح والطالح، إلا أننى عندما أصادف سودانياً خبيثاً، أبدو كمن صعقه تيار، وكأنه من المفروض ألا يوجد سودانى خبيث، وكأنه من البديهى أن كل أبناء السودان من الصحابة، ومن أولياء الله الصالحين!.

وربما لهذا السبب، وأيضاً لأن كل السودانيين طيبون، فأنا اتصورهم جميعاً لهم نفس الملامح، فالطيب الصالح يشبه على شمو، يشبه الدكتور عقيل، يشبه فاروق أبو عيسى، يشبه الدكتور عبد الحميد عبد الرحمن، يشبه الدكتور محجوب، يشبه خالد عباس، يشبه الدكتور عبد الحميد صالح.. فكلهم رجل واحد، ولأنه سودانى إذن فهو طيب، وهو إنسان بالرغم من اختلاف المذاهب والمناهج والطريق.

ولكن للحقيقة عرفت سودانياً اسمه (أبوآدم)، وهو مثقف من إياهم. ويوماً كان من أهل اليسار عندما كانت أعلام اليسار مرفوعة وأمواجه عالية، ولكنه خلع جلده فجأة، وانضم إلى يسار آخر، وإن كان يسلك عكس اليسار القديم. ولم تكن حركة الانتقال نتيجة دراسة ومقارنة واقتناع، ولكن لأن اليسار الجديد الذى انضم إليه كانت فلوسه كثيرة وشيكاته حاضرة. ولا أستطيع أن أقول بأن

(أبو آدم) هذا هو أخبث سودانى، ولكنى أستطيع القول بأنه أخبث بنى آدم. وأغرب شىء أنه عض اليد التى امتدت له خلال محنته فى الجيزة، وتنكر للناس الطيبين الذين احتضنوه أيام تشرده.

وعندما أبديت للصديق على شمو دهشتى من وجود سودانى من هذا النوع، أجابنى الصديق على شمو مبتسماً: هكذا السودانى، إما نموذج من السماء، وإما نموذج من الحضيض. ولأن الذين فى الحضيض قلة، لذلك ستجدهم فى حضيض الحضيض. ولأن الحياء هو ميزة السودانى، فإذا زال الحياء عن السودانى فقل عنه ما تريد.

وأنا لا أسوق مثال (أبوآدم) هذا لمجرد التفكه، ولكن لأن (أبوآدم) بتاع الجيزة سيجرنا إلى شىء أخطر، إلى (أبوآدم) آخر كان يحكم السودان منذ وقت قريب. وفى عهد (أبوآدم) **النميرى**، تحول السودان إلى ساحة معارك، وتحولت الخصومة السياسية إلى حروب قبلية، وأصبحت كل أيام السودان من أيام داحس والغبراء. والسبب أن (أبوآدم) النميرى استطاع أن يغير من طبيعة السودان. فلأول مرة فى السودان يتعلق المخالفون فى الرأى على المشانق، وتجرى كل عدة أسابيع مذبحة فى الشارع، ويطلق النار على المعارضين دون محاكمة. إنها أشياء جديدة على السودان، وهى من أفضال (أبو آدم) النميرى، الذى تختلف طبيعته كثيراً عن طبيعة شعبه، والذىجاءت به الأقدار التعيسة على رأس السودان، وعلى يديه تحول البلد الآمن المطمئن إلى عش زنابير، وبفضله تحول النيل الأبيض إلى النيل الأسود، وتحول النيل الأزرق إلى أزرق نيلة.

• • •

ومن كان يتصور أن الشعب السودانى سينتفض مرة كل عدة أشهر، وأحياناً كل عدة سنوات ليقدم الشهداء تلو الشهداء، ولكى يزيح عن صدره كابوس الظلم والظلام. لعلى أستطيع أن أزعم بأننى كنت أتصور ما حدث لمعرفتى

بشعب السودان. والذى يريد أن يعرف شعب السودان على حقيقته، عليه أن يدرس على الطبيعة نيل السودان الأبيض ونيله الأزرق. فكلا النهرين ينحدران من الجنوب إلى الشمال، ويلتقيان عند أم درمان، ليتعانقا معاً، وليكملا المشوار فى نيل واحد لا هو أزرق ولا هو أبيض، ولكنه نيل فقط.. والسلام.

ولكن ما أبعد الفارق بين النيلين! **النيل الأبيض** طيب هادىء فسيح ما بين الشاطئين ضحل المجرى، وحيواناته ضخمة مثله، طيبة مثله: أفراس بحر، فيلة، وقطعان هائلة من الغزلان والزرافات تشرب على الشاطئين. ويخيل لمن يقف على شاطىء النيل الأبيض أنه نيل ميت، والسبب أن سطحه هامد وخامد، فلا موجة ولا دوامة ولا حتى سمكة تتلعبط ، لأن السمك الذى تحت الماء سمك أهبل وطيب وعبيط وضخم الجثة. والسمكة الرشيقة فى النيل الأبيض تزن مائة كيلو، وبعضها يصل وزنه إلى ثلاثة أطنان، واسمها (العجلة)، وهى أحياناً ضعف حجم البقرة، ويبيعونها بالكيلو على شاطىء النيل!.

وبالعكس تماماً تستطيع أن تصف **النيل الأزرق**. فهو نيل هادر ثائر عميق الغور، ضيق المجرى، متوحش وعنيف، تستطيع أن تسمع صوته من مسافة بعيدة، وهو ينحدر بعنف من فوق جبال الحبشة، دافعاً أمامه أطناناً هائلة من الحجارة والصخور والطمى، وفى أعماقه تتصارع وحوش بحرية هائلة، وتماسيح عملاقة تخطف حتى الفيلة التى تدنو من الشاطىء، وأسماك متوحشة لها حراب ولا حراب مقاتل زنجى من مدينة واو. وفى النهر دوامات تبتلع من يقترب منها، وأمواج تلطم الشاطىء بشدة، وتيارات تسحب من يقف فى وجهها، وأعشاب سامة ينشق عنها قاع النهر تقتل من يأكلها أو يلمسها.

ومن صفات النيل الأزرق وصفات النيل الأبيض، استمد السودانى صفاته، فهو طيب هادىء كالنيل الأبيض، وهو أيضاً هادر ثائر متوحش كما النيل الأزرق، وهو لا ينام عن ثأره، ولو نامت كل الأحياء، وهو لا ينسى الإساءة، وإن كان يبدو للسذج أنه حليم إلى ما لا نهاية. ولا أحد يستطيع أن يحكم السودانى بالقوة أو يفرض عليه نظاماً بقوة السلاح.

ولقد أخطأ النميرى حين تصور أنه قادر على أن يحكم شعباً رغم أنفه، وهو من أجل أن يبقى فى السلطة، جعل فى كل بيت قتيل، وجعل بينه وبين كل سودانى ثأر. ولأن الخطأ كان فادحاً، فالثمن كان أفدح. وعندما سقط النميرى من فوق عرشه الذى أقامه على تل من جماجم الشهداء، كان السودان نفسه قد تغير. لم يعد السودان بعد النميرى هو نفسه السودان قبل النميرى، والفرق بينهما هو ذات الفرق بين هيروشيما قبل القنبلة الذرية وهيروشيما بعدها.

وإذا كان هذا هو السودان السياسة، فالسودان الناس ما أحلاه. والسودانى كالمصرى سيصبح صديقك بعد أول كأس، وسيصبح أصدق الأصدقاء بعد الكأس الثالثة، وقد يموت من أجلك بعد أن تفرغ الزجاجة. وإذا أحبك السودانى فكل شىء فيك جميل، حتى النهار الذى وصلت فيه هو أجمل الأيام، والمناسبة التى جئت من أجلها هى أحلى مناسبة.

والمرأة السودانية إذا أحبتك ستمنحك كل شىء، وهى رقيقة وعذبة وحبابة ومغرقة فى الرومانسية، ومتأثرة بعض الشىء بروايات الحب فى السينما، وبعضهن يمثل فى الحياة أدواراً سبق لهن مشاهدتها على الشاشة. حتى المرأة السودانية المبذولة للراغبين فى حى الامتداد تختلف عن أى إمرأة مثلها على ظهر الأرض، فالونسة هى الشىء الأهم، والمناقشة تأتى فى المرتبة الأولى، وقبل كل شىء. وقد يزدرد الزبون عشر زجاجات بيرة قبل اللقاء والعناق، فلا شىء يدعو إلى العجلة.

والبنت السودانية العادية تقطر خفراً وحياء، وهى تتعثر حين تمشى، وتتكسر حين تميل، وتصاب برصاصة إذا صوبت نظرتها إليك، وليس أجمل من هذا العصير العربى الإفريقى، ولا أمتع من هذا المزيج السامى الزنجى الذى أنتجه عرب قحطان وزنوج الدنكا، وكانت نتيجته هذا الجمال (العربيقى)، أو هذا الجمال (الزنجعربى) إذا صح التعبير!.

ولعل هذا يفسر لماذا تزوج كل أفراد الجيش المصرى الذين خدموا فى السودان أو بعضهم من بنات الجنوب، وبعضهم أقام هناك فلم يبرح مكانه، ولم

يعد إلى شمال الوادى. تعرفت هناك على مصرى عجوز يفتح دكان بقالة فى الخرطوم. كان قد ذهب جندياً فى جيش مصر وتزوج هناك وأنجب أولاداً، وعاش فى التبات والنبات، فلما انتهت خدمته آثر البقاء فى الخرطوم، واشتغل بالتجارة، وازدهرت أعماله، ولكنه فى الخامسة والخمسين أصبح وحيداً، فقد ماتت زوجته، وتفرق عنه أولاده، وعندئذ قرر العودة إلى مسقط الرأس. وعندما التقيت به فى الخرطوم، كان قد تجاوز السبعين ولكنه لم ينفذ حلم العودة قط، بالرغم من أنه كان يذهب كل عام إلى محطة السكة الحديد ويقطع تذكرة العودة، ويذهب إلى السوق فيشترى كل ما يحتاجه من أغراض، ويعد الحقائب ويجلس فى انتظار يوم السفر، إلا أن يوم السفر هذا لم يأت قط، كأنما فى الأرض خيوطاً تجذب الرجل فلا يستطيع فكاكا، أو كأن قدميه انغرستا فى طين السودان فلا يستطيع الحركة. لقد كان قدره أن يبقى هناك حتى آخر أيام العمر. ولم تكن هذه قصة (عم سليمان) وحده، ولكنها قصة ألف سليمان على الأقل، كلهم تمنوا العودة وكلهم هموا بها، ولكنها لم تتحقق لأحد منهم قط.

وإذا كان هذا هو **السودان العربى الشمالى**، سماحة من غير تفريط، ومحبة بكرامة، وصبر ولكن بدون يأس، فإن **السودان الإفريقى الجنوبى** شىء آخر. وإذا تصورت جنة الله فهى ستكون حتماً على غرار واو أو جوبا، حيث الغابات الفسيحة تجرى من تحتها الأنهار، وحيث فاكهة الجريب فروت تداس بالأقدام، وحيث كل شىء، وأى شىء بازغ وآفل، وأى شىء آكل ومأكول.

والداخل مفقود!

وكل بلاد العرب كوم وجنوب السودان كوم آخر. إنه غابة العرب الوحيدة (معذرة لأنى لم أزر الصومال) وهو جنة الله فى الأرض. وشعب الجنوب طيب وغلبان وعلى الفطرة، وهو لم يزل على حاله كما خلقه الله، ولولا مؤامرات الاستعمار على جنوب السودان، لكان لدينا الآن غابة بتتكلم عربى، مع الاعتذار للفنان الأرزقى سيد مكاوى.

ولكن الخواجة الذى كان يحكم ويتكلم، ووضع ستاراً حديدياً حول الجنوب، فلا أحد يدخل إلا بإذنه، ولا أحد يخرج إلا بإرادته. الأبواب مفتوحة للمبشرين ومغلوقة فى وجه الوعاظ، الكنائس مباحة والمساجد ممنوعة، اللغة الانجليزية متداولة واللغة العربية مطاردة، كأنها بعض لغات الشيطان. ولو كان الخواجة أصلح فى الجنوب، لو أنه نشر التعليم، لو أنه أقام نظاماً للحماية الصحية، إذن لغفرنا له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. ولكن كل شىء باق على حاله: المرض يفتك بالسكان، والجوع يفرى البطون، والجهل يعمى البصيرة والإبصار.

أرادوا الجنوب غابة للصيد ومضطجعاً للراحة والاستجمام!.

أغرب شىء رأيته فى الجنوب تمثال للسيدة العذراء والسيد المسيح، الملامح زنجية واللون أسود، يريدون إيهام أبناء إفريقيا أن المسيح كان من أبناء القارة السوداء. ولقد وقفت أمام التمثال أتأمل واتذكر قول شاعر إفريقى من غانا: «عندما جاء المستعمرون كان معهم الإنجيل ومعنا الأرض، وبعد وقت قصير أخذوا منا الأرض وأعطونا الإنجيل»!.

رأيت فى مدينة واو شاباً عارياً تماماً من الجنوب، ولكنه يرتدى قبعة فوق رأسه، ويدخن البايب، ويرطن بكلمات انجليزية، لعله لا يفهم معناها! رأيت آخر يستند إلى جذع شجرة ضخمة ويغنى أغنية أمريكية ذائعة الصيت (هابى بيرث داى)! وفى أحد شوارع جوبا استلفت نظرى عدد من الشباب يرقص عارياً تماماً، وفى الطريق العام، وعلى أنغام موسيقى راقصة، تنبعث من جهاز راديو رقصة (الهاى لايف) وكانت هذه الرقصة هى الشىء الوحيد الذى تركه المستعمرون خلفهم فى الجنوب. ولكن بالرغم من كل ما فعله الاستعمار فى الجنوب، فقد اكتشفت تعاطفاً شديداً لدى الجنوبيين مع عرب الشمال.

وأبكانى ذات مغربية ولد جنوبى يغنى داخل الغابة فى مدينة جوبا لحناً غاية فى الأسى والشجن. كان الجو ساحراً والشمس انحدرت وراء الغابة، وفى السماء قطع سحاب ضالة، ونسمة هواء منعشة، ورائحة فواكه طازجة تحلق فى الجو. وكان الولد الزنجى يغنى بصوت أشبه بصوت عبد الحليم حافظ مخلوطاً بصوت مطرب الخليج محمد زويد معجوناً بصوت عمنا القديم الشيخ يوسف المنيلاوى، وكانت كلماته هى عصير مأساته.. خليط من العربية والانجليزية والرطانة. (المندكورو) هم أبناء الشمال، ولا أدرى فى أى لغة تكون. و(ماتوا) معروفة بالطبع. و(سمبلة) أصلها انجليزى ومعناها ببساطة. و.. آك سورى إكوانى! (آك) ومعناها آخ، حرف ندب ولطم. وتستطيع أن تجد أصلها وفصلها فى قاموس أختنا الخنساء التى قضت العمر كله تندب أخاها صخراً. و(سورى) هى سورى بالانجليزية، بمعنى آسف. و(إكوانى) هى

إخوانى بالعربى. والولد الجنوبى يعلن أسفه وأساه على إخوانه (المندكورو) من أبناء الشمال الذين ماتوا ببساطة، أو ماتوا أونطة، أو ماتوا بلا سبب. وهو يعض بنان الماضى، ويقضم أظافر الأمس، على هؤلاء الإخوة الذين ماتوا بلا ذنب، ودفعوا حياتهم بلا سبب.

وهذه الأغنية كانت منتشرة فى الجنوب عقب الحرب الأهلية التى نشبت بين الشمال والجنوب فى عهد **الفريق عبود**. ولقد أريقت دماء كثيرة فى الغابة، وضاع المئات من زهرة شباب السودان من شماله وجنوبه، وانتهت الحرب بإطاحة نظام عبود. وبقى الشمال فى حاله والجنوب على حاله، ولم تحل الحرب مشكلة واحدة من مشكلات السودان. آك سورى إكوانى.

ولو كانت لدى أبناء قحطان وعدنان خطة، لو كان لديهم برنامج، لو لدى الأثرياء منهم بعد نظر وعاطفة قومية حقيقية، فإن جنوب السودان يمكن أن يتحول إلى جنة العالم خلال عشر سنوات. إنه يمكن أن يصبح حديقة العرب جميعاً، وحقل العرب عموماً، وعماد مصانع العرب فى كل مكان. وهنا أعظم أخشاب العالم، وألذ فواكه الأرض وأغنى مراعى الدنيا، وأغلى جلود عرفها البشر. وهنا الأناناس فى حجم كرة القدم، ولكنه يترك على الأرض حتى يتحول إلى هباء. وهنا الصمغ يهمل حتى يجف على الشجر. وهنا مزرعة ثعالب الكرة الأرضية، ولكن جلودها تتعفن بعد الموت. وهنا حيوانات من كل صنف وعلى كل لون، عظامها تصلح أسلحة، وجلودها تصلح أحذية، ودهنها يصلح كترياق.

ولكن يبدو أن السادة العرب فى واد آخر عن أراضيهم وعن خيرهم. ولماذا المشقة وكل شىء حاضر فى مخازن (هارولدز)، وكل شىء موجود عند مخزن (لافايت)، وكل شىء معروض فى شارع (أكسفورد). وأخشى أن نبكى على الجنوب يوماً لو ضاع من أيدينا، كما نبكى اليوم على الأندلس. فالجنوب ليس أقل أهمية من الأندلس، إن لم يكن أخطر، فهو بوابة إفريقيا، وحدوده مفتوحة على الحبشة وزائير وإفريقيا الوسطى، وهى مفتوحة لأن الغابة ليس لها بوابة،

فكل شيء سايح ومتجول وعابر سبيل. فهكذا طبيعة الغابة، لا شيء يحدها ولا شيء يتحكم فيها. ولكن للغابة حديث آخر. نرجو الواحد الستار أن يبقينا وإياكم حتى نهتك لكم هذه الأسرار.

• • •

والغابة أحوال وأهوال ومصائب سودة، ورزايا ونوايب، والداخل فيها مفقود والخارج منها مولود، أو هى هكذا على الأقل فى نظر الذين لا يعرفون الغابة. ولكنها فى نظر الآخرين الذين يعرفون الغابة شيء آخر، جزء من الحياة، يجرى فيها ما يجرى فى شارع (الشانزليزيه) فى باريس أو شارع (ريجنت) فى لندن. صحيح أن كل شيء فيها آكل ومأكول، ولكن من قال إن هذه ليست صفة المدن الكبيرة؟ الأسد آكل الذئب، والذئب آكل الثعلب، والثعلب آكل القنفذ، والقنفذ آكل الثعبان، والثعبان آكل الطير، والطير آكل الجميع عندما يتحول الجميع إلى جثة مطروحة فى العراء!.

والأسد هو ملك الغابة.. خرافة. صحيح هو ملك الغابة بمرسوم أصدره الإنسان، ولكن هذا المرسوم سيظل حبراً على ورق، لأن حيوانات الغابة لم تسمح به قط. وأعجب العجايب أن ملك الغابة هو الحيوان آكل الأعشاب: الفيل والجاموس ووحيد القرن. هؤلاء جبابرة الغابة، وهم أبطال الوزن الثقيل فيها، ولهم من الجميع المهابة والتقدير والاحترام. ووحيد القرن هو أقوى الجميع وأغباها، وهو مثل ليستون، مصرعه فى غبائه. وتأتى الجاموسة بعده فى القوة والغباء. ويحتل الفيل فى الغابة مكانة محمد على كلاى فى الملاكمة، القوة والذكاء. ولذلك سيبقى متربعاً على عرش الغابة وإلى آخر الزمان. والأسد المهاب أبو الزئير إذا التقى بالفيل فى الغابة، تنحى عن الطريق وضرب للفيل تعظيم سلام.

والأسد هو أكسل حيوان فى الغابة، وهو فى أسرة الأسود لا عمل له إلا النوم والتثاؤب، أما القنص والعراك وحماية الأسرة وتدبير غذائها فمن

واجبات اللبؤة، وهى إذا هبرت فريسة أعطت الأشبال أولا، وما تبقى فللزوج النائم الوخمان، وتبقى هى الرمز الأبدى للفداء، أول من يصطاد وآخر من يأكل. وإذا أكل الأسد فهو آخر نوم وأحلى أحلام. وتستطيع أن تمر به وأنت آمن، وأن تلعب له بأصابعك فى فروة رأسه أو تزغزه فى بطنه، فهو لن يتحرك ولن يتململ، وهو لن يصير خطراً إلا إذا جاع.

وفى قانون الغابة، أنك إذا أردت أن تصطاد أسداً، سمحوا لك بالدخول وحدك ما فيش مانع، مع آخرين زى بعضه، لأن أى مخلوق يحمل بندقية فى استطاعته أن يعود من الغابة وعلى كتفه جثة أبو السباع. أما إذا أردت أن تصطاد فيلا، فهناك سيضعون لك ألف شرط وشرط. لأنه آه وألف آه إذا انطلقت الرصاصة نحو الفيل ولم تصب منه مقتلا، عندئذ نهار الصياد أزرق، وليل الغابة كحلى، وستقوم القيامة على الجميع ولن تقعد أبداً. وليس فى الوجود أخطر من فيل يسيل منه الدم، سيتحول هذا الوديع إلى بركان تقذف منه الحمم تحرق ما حوله، فقد يخرج من الغابة ليهاجم القرى والمدن أيضاً، وسيحتاج الأمر عندئذ إلى كتيبة من الجيش لوقفه عند حده. لذلك فإدارة الغابة تشترط عليك أن تصطحب معك عشرة رجال مدربين على صيد الفيل وبأسلحة حديثة. وكاذب من يدعى أنه اصطاد فيلا فى الغابة. صحيح أنه أطلق النار، ولكن الرصاصة القاتلة حتماً سيطلقها هؤلاء المدربون العشرة، ولكنهم يتركون للصياد أن يعود إلى المدينة حاملا على كتفه سن الفيل. وماذا يهم، مادام يدفع الصياد تكاليف الرحله وأجر الحراس، ويقدم الطعام والشراب أيضاً.

ولذلك ستبقى هواية صيد الفيلة وقفا على السادة أصحاب الملايين؛ لأن صيد فيل واحد قد يكلف إقامة شهر داخل الغابة وعدة ألوف من الجنيهات. ولكن الفيل إذا لم تعترضه لا يعترضك، وهو ذوق ومؤدب ودمث للغاية. وهو إذا شعر بدنو الأجل سار مئات الأميال داخل الغابة ليعود إلى مسقط رأسه؛ لأنه ينبغى أن يلقى حتفه هناك. ولحمه يأكله سكان الغابة، ويقسمون لك أنه ألذ من لحم الجاموس، ولكن ألذ لحم فى الواقع وأغلى لحم أيضاً هو لحم القرود.

والصيادون إذا اصطادوا القرود، أرسلوا الشباب منها إلى حدائق الحيوانات، والعجائز باعوها للقرداتية يسرحون بها على المقاهى والحانات. أما النسانيس الصغار فهى تذبح وتعلق فى محل جزار، وهى أغلى اللحوم سعراً فى إفريقيا. وليس فى الغابة إلا المشاحنات والمشاجرات والافتراس. ولكن أخطر عراك هو الذى يدور بين الفيل ووحيد القرن، إنه صراع الجبابرة، وهى معركة ليس فيها غالب ولا مغلوب، وفى الأغلب ينتصر الفيل، ولكنه حتماً يموت بعد المعركة بأيام وأحياناً بساعات.

ولكن المباراة الحقيقية هى بين الوحش والإنسان، وهى مباراة عامرة بالإثارة، غنية بالفن، والنصر فيها غالباً للإنسان؛ لأن العقل أقوى من العضلات، والذكاء فوق الأظافر والأنياب. وأى وحش فى الغابة يفر هارباً إذا رأى شبح الإنسان. لا يهجم على الإنسان إلا من ذاق لحم البشر. ويقال - والعهدة على الآكل - إن ألذ لحم فى الوجود هو لحم الإنسان؛ والسبب أنك لا تستطيع أن تذوق اللحم، أى لحم بدون ملح، ولكن لحم البنى آدم لا يحتاج إلى ملح. إن ملحه منه فيه، على رأى الممثل سعيد صالح عبيط الفن العظيم. ولذلك إذا تذوق الوحش لحم البنى آدم، صار من آكلى لحوم البشر، وهو عندئذ سيعزف عن أكل لحوم الحيوانات، ويبقى كل همه أن يظفر بواحد من بنى آدم يفطر به ويحمد الله، وسيبقى بعد ذلك غريباً عن أهل الغابة، وهو سيهجر الغابة بعد ذلك، ويعيش على أطرافها، وستصبح القرى الآهلة بالسكان هى مجال عطه بعد ذلك. ولكن الحيوان لن يكتب له أن يعيش طويلا، فسيلقى حتفه بيد الإنسان الذى عشقه كثيراً، وتمنى لو يغرس أسنانه فى لحمه ليل نهار.

وهناك خطر انقراض وحيد القرن والجاموس الوحشى: هنود حمر الغابة، كل غابة وفى كل مكان. وإذا كان الجاموس موجوداً بكثرة فى كل الغابات، فإن وحيد القرن لا وجود له الآن إلا فى غابات السودان؛ السبب هو الغباء، وأنت إذا هربت من وجه جاموسة وصعدت فوق شجرة، فإنها ستربض لك تحت الشجرة، لا تأكل ولا تشرب ولا تنام، وستموت الجاموسة حتماً، بينما يكون

الذى فوق الشجرة قد هبط منها خلسة واختفى فى زحام الغابة عن الأنظار، أما وحيد القرن، إذا وقع فى كمين داخل الغابة، فإنه لا يسعى إلى تخليص نفسه، لكنه سينتحر على الفور، وسيتكفل النمل الأبيض بلحمه، وتبقى عظامه مادة رئيسية لصنع السلاح.

حكايات الغابة ما أعجبها وما أغربها. حكايات تقشعر منها الأبدان. وسبحان مدبر الأكوان.

على أبواب بابل !

أنا وقفت على باب العراق سبع سنوات استجدى الدخول دون جدوى . كان نورى السعيد يحكم العراق ويتحكم فيه ، حتى خيل إلى أننى لن أدخل العراق فى حياتى . وقبل الوحدة بين مصر وسوريا ، كان العبد لله فى دمشق ، وكانت دمشق وقتئذ قلب العروبة النابض ، والتقيت هناك بعدد من السياسيين العراقيين ، أذكر منهم عزيز شريف والدكتور صفاء وعبد القادر إسماعيل وآخرين، وقد حملونى رسالة إلى عبد الناصر. ولما كنت محررافى جريدة الجمهورية وأنورالسادات رئيسا للتحرير، فقد سلمتها إلىالسادات ليسلمهاإلى عبد الناصر. وبعد أسبوعمن تسليم الرسالة فصلونىمن الجريدة . وبعد أسبوع آخر جرجرونى إلى سجن الواحات . ويعلم الله أنى لم أكن أعلم محتويات الرسالة ، ولم أقرأ حرفا مما فيها على الإطلاق ، ولكن اكتشفت بعد سنتين من السجن أن الرسالة كانت تحمل إنذارا إلى عبد الناصر ، بأنه إذا أقدم على حل الحزب الشيوعى فى سوريا ، بعد الوحدة ، فإن الأحزاب

الشيوعية العربية ستكافح فى المستقبل ، ولكن فى طريق آخر غير طريق الوحدة والقومية .

وأغلب الظن أن الحزب الشيوعى العراقى اعتقد حسب مفاهيمه عن (الانزواء الارتوازى والالتحام الشنكبورى) أننى مندوب عبد الناصر فى دمشق . وأغلب الظن أيضا أن عبد الناصر بعد ما قرأ الرسالة ، اعتقد حسب تقارير الأجهزة أننى مندوب الحزب الشيوعى فى العراق . وهكذا ضاع العبد لله بين سوء فهم الحزب الشيوعى العراقى وسوء تصرف أجهزة مصر . ويشهد الله أيضا أن عمنا **أكرم الحورانى** كان الوحيد الذى اهتم بأمر العبد لله ، فسأل وزير داخلية مصر عن المصير الذى انتهيت إليه ، وبعد عشرة أيام ـ هكذا حكى لى عمنا أكرم الحورانى ـ أنكر وزير الداخلية وقتئذ أن السجون المصرية تضم محمود السعدنى أو واحداً بهذا الاسم .

وهكذا فإن الحزب الشيوعى العراقى مدين لى بعامين كاملين قضيتهما فى سجن الواحات الخارجة . وأقول أيضا إننى فى غاية السرور لأن الوزير **عامر عبد الله** ذكرنى بالدين ، وهو الذى ذكرنى فى بغداد أخيرا . وأنا أقول : المسامح كريم ، وما يصيب الريش بقشيش ! المهم ياسادة ياكرام أننى حاولت بعد خروجى من السجن أن أذهب إلى بغداد ، ولكنى لم أستطع الحصول على تأشيرة الخروج من القاهرة ، ولذلك صرفت النظر نهائيا ، وقلت لعلها حكمة أن **أقضى العمر كله ولا أرى بغداد ، ولكن شاءت الظروف أن يسقط نظام عبد الكريم قاسم** ، وأن أجد نفسى فجأة فى شوارع بغداد .

والحق أقول : إن بغداد كانت بالنسبة لى كحلم . عاصمة إمبراطورية العرب الثانية بعد دمشق ، مقر أبو جعفر المنصور وهارون الرشيد ، وعاصمة السحابة التى تمطر حيث تشاء ، فسيأتى اليها خراجها .. أعظم عبارة قيلت عن إمبراطورية فى كل الأزمان .

هنا فى بغداد عاش أبو نواس ، يدعى الانحلال ويجهر بالدنايا لينجو من قبضة السلطة ويحظى بعطف السلطان . وهنا عاش المتنبى ، وأصيب بعقدة

حياته حين حاول شراء عدد من البطيخ بدينار ، ويحمله المتنبى على كتفه ، ورفض البائع وباع البطيخ لآخر بنصف دينار ، ويحمله البائع على كتفه . ووقف المتنبى يتأمل البائع وقد خيل إليه أن فيه مس من الجنون ، ولكن البائع شرح الأمر للمتنبى وقال له مستهزئا : « هذا رجل يملك مائة ألف دينار ». حكمة ، أما الغنى فيعطى ويزاد ، وأما المتنبى فيؤخذ منه ! ولعل هذه الحادثة كانت السبب فى أن المتنبى حرص العمر كله بعد ذلك على أن يكون من أغنياء العصر ، ولعله مدح الجميع حتى لايرفض بائع بطيخ آخر أن يبيعه بدينار ماسمح لغيره بأن يشتريه بنصف هذا المبلغ !.

ولكن ياميت حسرة على بغداد كما رأيتها بعينى رأسى فى عام ١٩٦٥ . شوارع تشكو من قلة الزفت ، وأ واق تشكو من قلة التنظيم ، وظلام وخمول ، ومدينة فيها من الخرائب أكثر مما فيها من منازل . وتعجبت كيف صرخ المأمون حين رأى مصر وقال متعجبا : « لعنة الله على فرعون ! طغى فقال : أليس لى ملك مصر ؟ »، إذن ماذا يقول لو رأى ملك بغداد ؟ لابد أن بغداد كانت على زمن المأمون غيرها فى عام ١٩٦٥ .

وأغلب الظن أن بغداد دمرها المغول ثم العثمانيون ثم الحكم (الوطنى السعيدى) نسبة إلى **نورى السعيد** . حتى الطرب خلا منه بلد إسحق الموصلى وابنه ابراهيم . كان القبناجى قد اعتزل ونرجس شوقى هاجرت . ومات عندليب العراق ناظم الغزالى ، طيب الله ثراه . حتى الشعر أصيب بالسكتة فى بلد المتنبى وعلى الجهم ، هاجر عمنا الجواهرى واختفى بلند الحيدرى ، وانزوى عدنان الراوى يحتضر ، وغاب عبد الوهاب البياتى وعلى الحلى وشفيق الكمالى عن الميدان . أين العراق إذن ؟! البلد الذى كان يسكنه أربعون مليون نسمة فى زمن العباسيين ، وكان حقل الحنطة لإمبراطورية العرب . ومن الذى ارتكب الجريمة ؟ فأفرغ العراق من سكانه ، وأفرغه من خيراته، ويوشك أن يترك أنفاسه ولا يتركه إلا ميتا بلا حراك . إنه العهد الملكى السعيدى ، الذى اعتبر التمر مصدرا أساسيا للرزق ، واعتمد العمالة

اتجاها استراتيجيا فى السياسة ، وكرس الإعدام عقوبة لكل وطنى أو شيوعى أو بعثى ، يرفع علم العروبة ، ويطالب بأن تكون بغداد قبلة للعروبة وليس مقرا أو ممرا للأحلاف . ولما اطلعت على بغداد فى ذلك الزمان وما فيها من غرائب وأضداد ، هتفت : « يارب احمنى من أصدقائى ، أما أعدائى فأنا كفيل بهم ! » .

والحق أقول إن معالم بغداد التى انطبعت فى نفسى عام ١٩٦٤ و عام ١٩٦٥ هى التى جعلتنى لحظة خروجى من مصر عام ١٩٧٤ لا أذهب إلى بغداد ، يممت غربا نحو لندن ، وعشت فى لندن تسعة أشهر متواصلة اتسكع فى شوارعها ، وارتاد نواديها ، وأقضى أغلب النهار فى مستشفياتها . فقد كانت حبيبة قلبى (هالة) طريحة الفراش ، لم تنته من إجراء العملية الجراحية بعد . ولأول مرة حقا فى حياتى أشعر بالضياع . اشتاقت نفسى إلى روائح بلادنا ، واشتاقت آذانى إلى سماع الشيخ رفعت والشيخ عبد الباسط عبد الصمد ، وبكيت بالدمع لأنى لم أجد فى لندن رصيفا واحدا يتسع لمقعدين ، واحد ليّه وواحد للعبد الفقير زكريا الحجاوى ! نجلس وندردش ونسخر من أنفسنا ومن الناس . ولذلك قررت أن أهجر لندن . فاتجهت إلى بيروت ، ومن بيروت إلى الدوحة حيث كان عمنا زكريا الحجاوى يعيش هناك . وقد داخ السبع دوخات قبل أن يتوكل على الله ويموت . ومن الدوحة إلى أبو ظبى والكويت . رحلة عذاب متصلة مشيناها على الشوك أحيانا ، وعلى السيف أحيانا ، وعلى أبواب الله فى كل حين ! .

وأتاحت لنا الرحلة العجيبة اختبار أمة العرب على الطبيعة ، وخرجنا باكتشاف مهم ، وهو أنه لا عرب هناك ولا يحزنون ، وإنما نحن عرب فى الإذاعة وأعداء فى الواقع ، وأننا عرب باللسان وقلوبنا شتى ، وأن أى إنجليزى أو **أى أمريكى أو أى هندى أو أى إيرانى ، له فى بلاد العرب السلام والضيافة ، وللعربى المهانة والمذلة والحظ التعيس ! .**

ومن أجل سلاطة قلمنا وجارح كلماتنا ، طُردنا من بلد عربى باللطافة ،

ومن آخر بالتهديد ، ومن ثالث بالعنف ! وهكذا وجدت نفسى أخيرا فى بغداد . وبعد عام من إقامتى فى بغداد ، سألنى عربى من إياهم وكان يجلس معى فى فندق دار السلام عن الفرق بين بغداد وعواصم عربية أخرى ؟ فقلت للأخ العربى إياه المتبلطن بالفرو ، والمتدفىء بأوراق النقد : « بالنسبة إلى شىء واحد فى بغداد أفضل منه فى أى مكان آخر ، وهو أننى فى بغداد أعيش وأشعر وأعامل كمواطن عراقى » ، وكانت هذه حقيقة لاتقبل الجدل . فأنا على طول مالفيت ، وعلى طول مانطيت ، لم أشعر منذ غادرت مصر ، وفى أى بلد عشت فيه وسكنت ، أننى مواطن ، إلا فى بغداد .

ولم تكن المعاملة مقصورة على العبد لله باعتبارى من المشتغلين بالكتابة والسياسة ، أو لأننى كنت شهيرا فى بلادى يوما ما . ولكن هذه هى المعاملة التى يلقاها كل عربى فى بغداد . مرحبا بالجميع ماداموا عربا . لهم ماللعراقيين من حقوق ، وعليهم ماعلى العراقيين من واجبات . شهادة حق على أن الشعار المرفوع (وطن واحد) ليس للتجارة وليس للاستهلاك المحلى أو العربى ، ولكنه شعار وجد للتطبيق ، وأنه إيمان لدى كل فرد فى الحزب الحاكم ، من **أحمد حسن البكر** إلى آخر عضو فى الخلية الحزبية فى الأهوار . ويكفى أن تكون عربيا حقا لكى تجد مكانا لك فى بغداد . الجواسيس فقط والخونة هم الممنوعون من الإقامة . ولذلك ستجد الجميع هناك فى أول تجربة من نوعها فى الوطن العربى : الشيوعى والبعثى والناصرى والليبرالى والوطنى الذى يقاتل ضد المصالح الأجنبية والاستعمار . ولو نجحت التجربة ـ واعتقد أنها ستنجح ـ ستمهد الطريق لصياغة علمانية جديدة فى الوطن العربى (التجربة فشلت للأسف الشديد) .

وإذا كانت هذه هى بغداد السياسة ، فبغداد الشارع آخر حلاوة وآخر جمال . والعراقى العادى طيب ، فيه من المصرى ثقته الشديدة فى كل من يلقاه ، وهدم الحواجز بينه وبين كل من يلقاه من الناس . وإذا كان المصرى على استعداد للموت فى سبيل صديقه الذى لم يتعرف عليه إلا منذ بضع ساعات ، فإن

العراقى يمكن أن يدخل معركة الهول من أجلك ، خصوصا إذا كنت عربيا وغريبا فى بغداد . وإذا كان العراك مع ليبى فى ليبيا ، سينتهى بموت الغريب ، فالعراك فى العراق مع عراقى ، سينتهى بموت العراقى . لأن العراقيين الذين سيوجدون لحظة العراك ، سيقفون لامحالة إلى جانب الغريب . وإذا عشت فى العراق فستنسى بلادك وستنسى أصدقاءك ، لأن كل العراق سيصير بلدك وكل العراقيين سيصبحون أصدقاءك . عندما سكنت دارى أول يوم فى (المنصور) ، انهالت علينا الأطعمة من البيوت المجاورة ؛ لأنه هكذا يعامل السكان الجدد فى العراق .

والعراقى العادى بسيط للغاية ، يضحك من الأعماق ، ويبكى من الأعماق ، ويسيل رقة ، ويهتز غضبا . لذلك أحذرك من العراقى إذا غضب . ولايغضب العراقى إلا لكرامته ، وما عداها فكل شىء يهون . وإذا كنت قد حرصت على أن أكرر كلمة العراقى (العادى) ، فأنا أقصدها ؛ لأن هناك عراقيا آخر هو صنف الموظفين فى دوائر الحكومة القديمة ، فى الجمارك والجوازات والتربية والتعليم . هناك حيث اللوائح التى وضعها السلطان عبد الحميد والنصوص التى وضعت لإرضاء السلطان رشاد ، ستجد صنفا آخر من العراقيين ، ولذلك إذا أردت أن ترى وجه العراق المشرق ، فلا تذهب إلى الجمارك ، لأنك ستدوخ دوخة الأرملة ، وستبكى بكاء الخنساء ، وستذهب قصتك فى الأجيال ولا قصة النبى أيوب ! ولما اطلعت على سلوك رجال الجمارك ، هتفت : « يارب ياحفيظ ، نجنا من هذا السلوك المغيظ ! » .

والحق أقول إن الهيكل الوظيفى ورثته ثورة العراق من عهود سابقة . ولأن البشر لايتغيرون بسهولة ولا بالسرعة المنشودة ، فأغلب الظن أن الأمل سيكون فى الأجيال الجديدة . وأنا أقول الآن بعدما عشت فى العراق عامين : إن العراق سيتحول تحولا جذريا إلى الأفضل والأرفع لو ساد فيه هذا الاستقرار الذى يشهده الآن ، وهذا لم يحدث فى تاريخه الحديث من قبل . نعم ، تحتاج بغداد إلى عشرين عاما على الأقل لكى تصبح شيئا مختلفا عما كانت عليه من

قبل . شىء باهر وجميل . لأنه فى السنوات العشر الأخيرة تحولت بغداد مثلا إلى حديقة كبيرة . وتستطيع أن تقيم الآن فى بغداد وأنت آمن حتى ولو كانت أبواب دارك مفتوحة .

وأقول أيضا وأنا أمسك الخشب : إن مشكلة المشاكل فى العالم ـ التضخم ـ لم تدق أبواب العراق بعد . صحيح السيولة متوافرة وموجودة ، ولكن البضائع أيضا متوافرة وموجودة . ولعل العراق هو البلد العربى الوحيد بعد ليبيا فى رخص الأسعار . وتستطيع لو كنت فى بغداد ، وإذا كنت أعمى مثل حالى ، أن تصنع نظارة طبية فى محلات القطاع العام بثلاثة دنانير ، وثمنها فى لندن مائة جنيه بالتمام والكمال . وكيلو التفاح بعشرين قرشا ، وكيلو الخيار فى الصيف بدرهم ، وكيلو اللحم بدينار . ولكن الذى يحتاج إلى وقفة طويلة هو عملية الاستهلاك . إذا نزلت أى كمية من التفاح إلى الأسواق ، اختفت فى ظرف ساعة ، وإذا عرضت محلات (أوروزدى باك) أى شىء ، اختفى هذا الشىء تماما فى ساعة . وهناك موضة جديدة فى بغداد اسمها (المجمدة) ، وأنت لاتملك مجمدة ، فأنت لست عراقيا ، مع أنها بلاد زراعية ، والأشياء متوافرة فيها على مدار السنة ، وكل شىء حاضر وموجود وممكن زراعته حتى فى الحدائق . والعراقى يشترى دون رغبة فى الشراء ، ويشترى لأن الفلوس حاضرة والشىء موجود .

ومائدة العراقى دسمة ، وهو أيضا كريم ، وستجد عليها كل أنواع الطيور واللحوم والأسماك ، ولكن عدوى الوحيد فى العراق هو (الكبة) . والكبة هى الطعام الوطنى فى العراق . والعبد لله وإن كان عراقيا بالمزاج ، إلا أنى لست عراقيا بالمعدة . وأجمل شىء فى بغداد هو المطاعم الصغيرة المنتشرة على عربات اليد فى شوارع المدينة ، وأجمل منها زبائنها الذين يترددون عليها كل يوم . وستجد من بينهم شعراء وأدباء وفنانين ، لهم فى دنيا الفن صيت ، ورجال أعمال ورجال طريق ، ولا أحد منهم يستنكف الوقوف على الرصيف ليتناول طعام العشاء . عندما نزلت بغداد أول مرة ، قادنى **عبد الرحمن الخميسى** إلى مطعم صغير فى (الكرادة) ، وهتفت وأنا التهم الطعام كالغول : « يامرحبا

بغداد » . ولكن **على بلوط** قادنى فى مرة أخرى إلى مطعم آخر ، وجعلنى أبكى على العمر الذى انقضى قبل أن أمضى إلى هذا اللحام . أغرب شىء أن الولد الذى يشوى اللحم قال لى ذات مرة: لقد عرفت الرجل الذى كان معك. إنه على بلوط رئيس تحرير (الدستور). لقد رأيت صورته فى إحدى المجلات ، ولم أكن أعرف أنه هو الشخص الذى اعتاد أن يأتى إلى هنا كلما جاء لزيارة بغداد . ومرة أخرى ضحك الولد وهو يقف خلف النار ، وقال وهو يغمز بعينه : أنت محمود السعدنى . أنا رأيت صورتك وقرأت لك فى (ألف باء) .

وهذه الحادثة تقودنا إلى ظاهرة عجيبة فى بغداد ، وهى أن العراقيين مدمنون على القراءة ، وهم على معرفة بكل إنتاج الأدب العربى ، حتى هؤلاء الذين نستخف أحيانا بشأنهم ، أو نقلل من قيمة إنتاجهم . والعراقى أيضا قارىء حساس جدا وغضوب جدا . فقد انهالت على العبد لله مرة عشرات الخطابات تعاتبنى كلها على عبارة (العالم العربى) التى وردت لى فى مجلة (ألف باء) : كيف تقول (العالم العربى) إذا كنت بالفعل تؤمن بالوحدة ؟ إن (العالم العربى) عبارة مبهمة كعبارة (العالم الغربى) . وعندما نقول عبارة (العالم الغربى) فهى تشمل شعوبا مختلفة وأمم شتى ، ولكن قد يجمع بينهم رباط واحد ، وهو أنهم جميعا من العالم الغربى ، ولكن العرب شىء آخر مختلف . وبلاد العرب اسمها (الوطن العربى) . لأنها بالفعل بلد واحد مزقه أعداء العرب لأمر فى نفس يعقوب . وبعض الناس العاديين فى العراق يحتفظون بكل أعداد (صباح الخير) فى الخمسينيات والستينيات ، وبعضهم يحتفظ بأعداد (روزاليوسف) منذ أن ظهرت . والعجائز منهم يذكرون بالخير عمنا الدكتور **زكى مبارك** ، الذى عاش فترة طويلة فى بغداد ، وتعلق قلبه بليلى المريضة بالعراق . والحق أقول إنه كان للدكتور زكى مبارك فضل على أبناء جيلى ، لأنه عرفنا بالعراق ، وجعلنا نعيش فترة صبانا المبكر فى أجواء بلد علاء الدين والسندباد .

وإذا كنت تريد حقا معرفة العراق والغوص فى أعماقه ، فاذهب إلى **(الشواكة) و (علاوى الحلة) و (الشيخ معروف). انك هناك ستكتشف**

العراق الحقيقى ، وستتعرف على أعمق أعماق العراق . ولست أدرى لماذا تذكرنى تلك الأماكن بمصر أيام زمان . مصر الحلوة الطيبة السخية ، ومصر القديمة قبل أن يمسخ وجهها أبطال الانفتاح ، وشوهوا روحها قرود الطبقة الجديدة . وستجد فى الشواكة وعلاوى الحلة نماذج من أبناء البلد الطيبين . واحد منهم تعرف علىَّ ، وكان يعرف بطبيعته الأصيلة أننى هارب ولاجىء من مافيا الانفتاح . وأقسم الرجل ألف يمين ألا أبرح مكانى قبل أن نأكل معا عيشا وملحا . وكانت أكلته (مسجوف) أكلناها على رصيف الشارع فى الشواكة .

ولكن ماذا عن ليلى المريضة فى العراق ؟ وماذا جرى لها بعد عمنا الدكتور زكى مبارك ؟ هل مازالت مريضة ؟ أم أنها نهضت من فراش المرض بالسلامة وأصبحت آخر صحة وآخر جمال ؟ أنا شخصيا لما اطلعت على أحوالها هتفت : « ياعالم الواردة والشاردة ، احفظها من كل عين باردة » ! .

أوطان الآخرين !

وإذا كنت قد عشت فى العراق ست سنوات، فالحق أقول إن هذه السنوات الست قد حفرت فى نفسى علامات، وتركت فى نفسى ندوب. وبالرغم من ذلك، فأنا مدين بالفضل لبغداد. فقد علمت أولادى، وتخرجوا فى جامعاتها، ووفرت لأسرتى الاستقرار الذى كانت تنشده، وأيضاً عرفتنى بغداد بشخصيات عربية لم تتح لى الظروف من قبل أن اتعرف عليها. وعلى رأس هؤلاء عمنا **أمين الحافظ** رئيس سوريا الأسبق، الذى دافع عن بيته عندما هاجمته قوات الانقلاب، بشكل أفضل مما دافع به البعض عن هضبة الجولان. وصديق آخر تعرفت عليه هو أخونا الدكتور **عارف الكيالى**، وهو عربى سورى ونموذج من الرجال أتمنى أن أرى مثله صورة العربى فى كل مكان.

أما **عبد الفتاح الزلط**، الذى تعرفت عليه يوماً ما فى حلب، وكنا وقتئذ فى عنفوان الشباب، وكنا نحلم معاً بوطن عربى واحد وجيش عربى واحد،

ومجتمع عربى واحد يضج بالحرية والنضال والحياة. أخونا المناضل **عبد الفتاح الزلط** الذى التقيت به أخيراً فى بغداد، أنكرنى وأنكرته. لقد تغير كما تغيرت، وترك الزمان بصماته على وجه كل منا، وترك أثره على شعره فصار فى لون القطن، ولم يترك على شعرى أثراً، لأنه لم يجد على فروة رأسى أى شعر! شيء واحد فقط جمعنا واتفقنا عليه، وهو الازدراء الكامل لما صارت عليه الحال فى الوطن العربى، والتشاؤم بالنسبة للمستقبل، والبكاء على أيام مضت، كنا نبكى فيها على ما نظن أنه اعوجاج، فصار انحرافاً، تلك الأيام غاية الاستقامة بالنسبة لما يحدث الآن فى عواصم العرب الكبرى. ضاقت بنا السبل، وضاقت بنا الحيل، ولم يعد أحد يدرى من أين؟ أو إلى أين؟.

أما رجال السياسة فى العراق، فقد جعلنى بعضهم أشعر بأن العالم جميل والدنيا بخير. **نعيم حداد** عضو مجلس قيادة الثورة، وشجرة الجميز الطيبة التى أظلتنى فى لحظات الهجير القاسية. **ومنيف الرزاز** الذى كان أقرب المسئولين إلى نفسى وعقلى. **وشفيق الكمالى** رئيس اتحاد الأدباء، الذى ترجع صداقتى به إلى أيام قهوة محمد عبد الله بميدان الجيزة، والذى كان كالبلسم لجراحى، التى أحدثها فى جسمى وفى نفسى عشرات من الأرزقية الذين يشتغلون بالسياسة فى بغداد. والشاعر **حميد سعيد** ابن (ريف الحلة) صاحب النفس الصافية والضمير الحى، والذى كان ملاذى فى اللحظات التى أشرفت فيها على قتل نفسى. **ونصيف عواد** السياسى الفذ صاحب الأفق الواسع والنظرة المستقبلية، العروبى الحقيقى، الذى يؤمن إيماناً لا يتزعزع بأن بعث أمة العرب لا يتحقق، إلا بأن يكون كل عربى حراً. والصحفى **أمير الحلو**، الذى كان أول وجه التقيت به فى العراق، وكان نعم المدخل إلى بلد الرشيد والمأمون وأبى تمام. **والمقدم أرشد** ياور صدام حسين، الرجل الذى كان أشبه بفارس من فرسان العرب فى صدر الإسلام، آخر شهامة وكرم واستبسال.

وفى المقابل، كان هناك عشرات من الوحوش الكاسرة، تصوروا فى لحظة جنون وغرور أن اللاجئين السياسيين هم أسرى وقعوا فى أيديهم. وتصوروا

فى لحظة طيش أنهم قادرون على إخضاع الجميع بإغرائهم، وبمحاولة تقزيمهم. على رأس هؤلاء، رجل مسئول، حجمه وشكله لا يرشحانه إلا لمنصب صبى فى قهوة أو دلّال فى سوق. كان وجهه يشبه إلى حد كبير وجه ممثل كوميدى عربى مشهور، وكان هذا الشبه هو عقدة حياته. وكان يتصور أنه فيلسوف هذه الأمة ومبعوث العناية الإلهية لبعث هذه الأمة من رقادها الطويل. والحقيقة أنه كان أجهل من دابة، وكان الفشل هو رفيق دربه على طول الخط. اشتغل صحفياً فلم يحقق شيئاً. واشتغل كاتباً يكتب مقالات من نوع (الحنجورى المتهالك فى الشنجورى) فلم يقرأها أحد إلا أهل بيته، وبعض المنافقين من بطانته. واشتغل وزيراً فجعل من وزارته أضحوكة للجميع. هذا المسخ المشوه تصور أنه قادر على تنصيب نفسه أستاذاً للمثقفين والكتاب المصريين الذين لجأوا إلى العراق! ولقد نجح فى إخضاع البعض بفلوسه. وجن جنونه عندما قاومه البعض الآخر، فسلط زبانيته عليه، وانكشف من خلال سلوكه السلطوى، فإذا به لا يؤمن بشيء مما يردده، وإنما هو مجرد مستبد صغير، سيذهب فى النهاية إلى زبالة التاريخ.

وغير هذا الدعى، كان هناك عشرات من الخنافس الصغيرة، تصوروا فى لحظة جنون أن القومية هى أن يتولوا قيادة القوم. وتوهموا أن العروبة هى أن تركب فى عربتهم. واعتقدوا أن الاشتراكية هى أن تشترك معهم فى كتابة التقارير. خنافس حقيرة وعناكب سامة لها أسماء: (جبار) و(الدهش) و(باصى) و(أبو سعد).. وآخرون. والمؤسف حقاً أنه يوجد لهذه الخنافس شبيه فى كل أجزاء الوطن العربى، فهناك جبار وباصى والدهش فى دمشق وفى طرابلس الغرب وفى تونس وفى الجزائر وفى عدن، وحتى فى القاهرة. والمؤسف أيضاً أن مصريين كثيرين مشوا فى ركابهم، وركبوا فى عربتهم، واشتركوا معهم فى تحرير التقارير، وأصبحوا من مليونيرات العصر وسكنوا لندن وروما وباريس! على رأس هؤلاء زعيم **حزب الكهرباء**، الذى أسس لحساب هؤلاء حزباً كهربائياً، ضم زوجته وخادمته ومهندساً كهربائياً فى حجم التيس، وولد أرزقى خرج من مصر بلا سبب، ولم يكن مطلوباً من السلطة

ولا مطارداً من البوليس.. خرج قاصداً بلاد العرب لهدف واحد ووحيد، هو الحصول على الفلوس بأى طريقة ومن أى طريق، وانهمك فى كتابة التقارير وتجنيد المصريين الذين يقصدون العراق من أجل لقمة العيش. وكان هؤلاء هم أعمدة الحزب.

وكانت مهمة حزب الكهرباء فى الحقيقة، هى اصطياد الشباب المصرى وتهيئته وإعداده وتسليمه لجبار، ثم بعد ذلك لا أحد يعلم ما الذى يجرى لهم أو يجرى عليهم. ولكن الأكيد أن هؤلاء الشباب ضاعوا جميعاً بسبب المسافة البعيدة بين الشعارات والتطبيق، وبين الحلم والحقيقة. وبينما ضاع هؤلاء الشبان الصغار، أصبح رئيس حزب الكهرباء مليونيراً يشار إليه بالشيكات، وتحول الكهربائى وكيل الحزب إلى مليونير يشار إليه بالدولارات، أما الأرزقى إياه، فقد هبر هبرته وعاد إلى مسقط رأسه، ويتصرف الآن كواحد من ملوك الانفتاح! .

أيام مضت وأرجو ألا تعود، ليس بالنسبة للعبد لله فقط، ولكن بالنسبة إلى كل صاحب رأى، أو صاحب قضية، أو صاحب وجهة نظر. وإذا كنا قد فضحنا هؤلاء الخنافس وحفنة الأرزقية الذين خضعوا لهم مقابل أكياس الدنانير، فالأمانة تقتضينا أن نذكر بالخير الرجل العراقى الأول **صدام حسين**. والحق أقول إنه أنقذنى من براثن هؤلاء، وحمانى من بطشهم. ولقد حرضنى مرة على أن أقاوم هؤلاء بعنف، وأن أقف أمامهم بقوة، وقال قولا مأثوراً ما زلت اتذكره وسأظل أذكره حتى آخر يوم من أيام العمر. قال: «ما عليك يا محمود من هؤلاء، فهؤلاء الصغار موجودون فى كل مكان على الأرض العربية، وعلينا أن نقاومهم فى كل مكان، لكى نشق الطريق إلى المستقبل الذى نحلم به للأمة العربية».

والحق أقول، كان صدام ودوداً وعطوفاً، وكان يشعر بأنه مسئول عن كل من لجأ إلى العراق فى ظله. ولكن.. كم من هؤلاء استطاعوا الوصول إليه؟ ولقد كان العبد لله حسن الحظ، لأننى استطعت اختراق دفاعات هذه الخنافس،

واستطعت المرور من بين خنادقهم، وتمكنت فى النهاية من الوصول إليه. وبالرغم من ذلك لم تتوقف الحرب. أصدر صدام ذات مرة أمره بإعداد مسكن لائق للعبد لله بعد أن قضيت خمسة أعوام أسكن فى بيت شبه مهجور، وينام أفراد أسرتى على الأرض. ومع ذلك مرت خمسة أشهر ولم ينفذوا أمر الرجل. وعندما حملت متاعى وأوشكت على مغادرة العراق، نصحنى أحد الإخوة العراقيين بألا اتسرع وأن اتصل بصدام أولا. وتطوع الصديق العراقى وأبلغه بالأمر، وثار الرجل ثورة عارمة واستدعانى فى اليوم التالى، وفى اليوم الثالث كان كل شيء قد تم. ولم يقدر للعبد لله الحياة فى البيت الجديد إلا شهرين. فقد اضطررت إلى ترك العراق هارباً مصطحباً ابنى الوحيد معى، تاركاً أسرتى وحدها فى بغداد. والسبب أنهم بعد انتقالى إلى المنزل الجديد، تصوروا أننى انتصرت عليهم، فقرروا الانتقام. وبدأ الضغط يشتد، وعندما أحكموا الحصار، قررت أن أغادر العراق. وفاتحت الدكتور يحيى الجمل الذى كان فى زيارة خاطفة لبغداد فى الأمر، وأقرنى على ذلك، ثم أبلغت الأستاذ محمد صبرى مبدى أيضاً.

وعشت عشرة أشهر خارج العراق، متنقلا بين لندن ودولة الإمارات. وكانت فترة من العذاب المتصل والأرق المستمر. فأنا فى الإمارات وأسرتى فى بغداد، ووطنى بينى وبينه حواجز دونها حواجز، وأهوال دونها أهوال. وفى النهاية تدخلت السماء لتضع حداً لآلامى وضياعى. وتولى **حسنى مبارك** أمر مصر، وكان لابد أن أعود. وعدت ولكن عن طريق بغداد. وكان لقائى مع صدام حسين قبل الرحيل هو مسك الختام. أما العناكب والخنافس، فقد دخلوا الشقوق بعد أن تأكدوا بأننى عائد إلى القاهرة.

وإذا كان لابد من كلمة تقال لشباب اليوم، فكلمتى لكم: احذروا مغادرة الأوطان، وتجنبوا اللجوء إلى أوطان الآخرين مهما كانت الشعارات براقة والكلام معسول. لأنك يا ولدى لن تستطيع ولن يسمح لك بأن تلعب سياسة على أرض الآخرين. وإذا لعبت فسيكون لحسابهم ولمصلحتهم، ولن تكون أكثر من

كاتب تقارير أو مخبر نشيط، أو فى أفضل الأحوال عضواً فى حزب الكهرباء، تكتب التقارير وتجند الأفراد لحسابهم مقابل أكياس الدنانير !.

وتسألنى الآن يا ولدى: وما الحل؟ إذا تورط الإنسان فى عمل سياسى داخل بلده، وفى غياب الديموقراطية، وفى ظل نظام يعتمد البطش والقمع والتقتيل؟ وجوابى هو كما قلت لك: تقدم إلى السجن فى بلدك، أو تعلق بحبال المشنقة فى مسقط رأسك. هذا أفضل وأشرف مما سوف تلاقيه فى بلاد الآخرين. وآه من الضياع وخيبة الأمل فى بلاد الآخرين!!.

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٨٨ / ٣٥٧٧

ابن عطوطـة !

ولكن عمنا ابن بطوطة كان اسمه هو عيبه ، فبطوطة من البط ، والبط طائر لا يطير ! شديد الكسل شديد الوخم ، غاية رحلته لفة فى بحيرة ، أو نزهة فى بركة ، أو بلبطة فى ترعة حسب الأحوال والتساهيل .

ولذلك أطلقت على نفسى لقب ابن عطوطة على وزن ابن بطوطة باعتبار أن كلا منا له رحلات وجولات وسفريات على اختلاف المكان والزمان .

أنا إذن ابن عطوطة ، وهى من العط ، والانسان يعط حتى يزهق ، وأحيانا حتى يغمى عليه .

محمود السعدنى

مركز الاهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الاهرام